مدينة بربر السودانية والروابط الثقافية للرحلة الحجازية: دراسة وثائقية لرسائل السادة الكنتية

إعداد/ د. معتصم الحاج عوض الكريم[1]

الواصفات:الرحلة الحجازية،الدراسات الوثائقية،السادة الكنتية؛ مدينة بربر ؛الروابط الثقافية؛**المستخلص:**

تتناول هذه الدراسة العلاقات الثقافية بين أصقاع العالم الإسلامي المترامية الأطراف، وطرق الحج كأهم روافد تلك العلاقات، وإبراز دور مدينة بربر كميناء داخلي ومحطة من أهم المحطات في طريق الحج في السودان الشرقي، وتاريخ أسرة السادة الكنتية بمنطقة أزواد بغرب إفريقيا، وعلاقتهم بالسودان الشرقي عامة ومنطقة بربر خاصة، وهي دراسة وثائقية تتدرج أهميتها فى إبراز التواصل والاتصال العلمي والتراث الثقافي بين أقطار ومدن وعلماء الأمة الإسلامية.

تنبع **أهمية** الدراسة من أهمية طريق الحج في إفريقيا؛ وأثره في بعث الروح الإسلامية والروابط الاجتماعية والثقافية بين أطراف البلاد الإسلامية، تتركز **إشكالية** الدراسة حول العلاقات الثقافية والآثار العلمية للرحلة الحجازية، وكيفية بحثها وتوثيقها والإفادة منها، وهو أمر عزت فيه الكتابة، وخلت المكتبة السودانية منه تماما، وبهذا تحاول الدراسة أن تسد ثغرة في مصادر الدراسات السودانية في الموضوع، ويمكن عرض هذه الإشكالية من خلال عدة **تساؤلات**كما يلي:

إلى أي مدى أسهمت الرحلة الحجازية في توثيق أواصر الصلات وإقامة العلاقات الاجتماعية والثقافية بين المجتمعات الإسلامية؟ وتتفرع من هذا التساؤل تساؤلات أخرى:

١/ ما الأدلة والشواهد المادية على العلاقات الثقافية بين السودان الشرقي والغربي ؟

٢/ من هم السادة الكنتية؟ وما علاقتهم بمدينة بربر خاصة والسودان الشرقي عامة؟

و**تهدف** الدراسة إلى:

١/ الوقوف على العلاقات الثقافية بين أطراف البلاد الإفريقية والعربية بسبب الرحلة الحجازية.

٢/ إبراز الرحلة الحجازية كأهم عوامل الوحدة الإسلامية.

٣/ استخدام المنهج الديبلوماتيكى في إبراز العلاقات الثقافية للرحلة الحجازية.

٤/تسليط الضوء على مدينة بربر كمحطة في معالم طريق الرحلة الحجازية فى السودان.

٥/ التعرف على جهود السادة الكنتية وآثارهم العلمية والثقافية خارج حدود السودان الغربي

وتستهدي الدراسة **بالمنهج** الوثائقي والملاحظة والمصادر التاريخية، كأهم أدوات جمع البيانات.توصلت الدراسة إلى عدة **نتائج** أهمها: أهمية التواصل والاتصال الثقافي بين أقطار ومدن وعلماء الأمة الإسلامية،عكست المدونات والآثار الخطية الكنتية العلاقات الثقافية للرحلة الحجازية، وعبرت عنها بشفافية،ومن **التوصيات** تتبع مسار الرحلة الحجازية من العمق الإفريقي إلى سواحل البحر الأحمر باستخدام شتى الوسائط ولا سيما الأفلام التسجيلية.

---

[1] استاذ مساعد بقسم علوم المكتبات والمعلومات كلية الآداب جامعة افريقيا العالمية – الخرطوم/ السودان-
mutasimaj0@gmail.com

تمهيد

عرف السودان الشرقي منذ القدم بأنه أرض مضيافة متجددة العطاء، تقترب من الوافد الجديد لدرجة أنها تتبنى مبادئه ومعتقداته **(ترمنجهام،٢٠٠٠م:١٠)** وتوفر له فرص الإقامة المستدامة حتى ينسى أهله وعشيرته، فلاغرو أن يجد الغريب نفسه فرداً فاعلاً؛ بل قائدا فذاً لذلك المجتمع المضياف، وصدق عليهم قول الشاعر:

فلا عيب فيهم غير أن ضيوفهم تلام بنسيان الأحبة والوطن

فقد استوعبت المنطقة الموسومة الآن بالسودان،سابقاً أرتال الهجرات العربية من الجماعات والقبائل والأفراد؛ ومازالت تستقطب في عهود تالية النخب من العلماء ولا سيما سكان المغرب الإفريقي وبلاد شنقيط الذين ظلت لهم مكانة سامية في نفوس السودانيين ونخص منهم الأفراد ذوو النفوذ؛ الذين كان تأثيرهم ظاهراً وأثرى المجتمع ورفده بالمؤثرات الثقافية والاجتماعية، وربما السياسية، فقد سبقت صاحبنا الشيخ (زين العابدين الكنتي) من قبل مجموعة من نخب المغاربة أمثال الدنفاسي صاحب المنظومة[٢]بمدرسة الغبش غربي بربر **(عوض الكريم،٢٠١٤م)** والتونسى صاحب كتاب (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد المغرب والسودان) "بدار فور وودّاي، فضلا عن السلاوى المغربي، فيما عرف عند المؤرخين بنظرية الغريب الحكيم**(عوض الكريم،٢٠١٤م:١٥١)** مما هيأ جواً من المؤثرات الثقافية وعوامل البيئة الصالحة للإقامة المستدامة وتكوين الأسر الممتدة للكثير من العابرين؛ والذين قصدوا أرض السودان الشرقي لأغراض متباينة، لكنهم (مكثوا) ولم يقفلوا راجعين إلى بلادهم(هجرة الباتي)[٣]**(الهندى،١٩٧٩م:٦٧٦)** مما سهل الاندماج والامتزاج والتواصل والاتصال العلمي والثقافي. فقد مثلت المدونات والآثار العلمية التى توافروا عليها شواهد ملموسة على قوة العلاقات وأواصر الصلات بين الشرق والغرب الإسلامي.

فقد عرفت حديثاً ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات بأنها اختصرت المسافات؛ بيد أن العلاقات الروحية والروابط الثقافية قديماً؛على الرغم من شح التقانات والإمكانات؛ قد فعلت أكثر من ذلك وبدرجة بارعة، إذ سجلت حضورا بارزا ليس على مستوى الثقافات والمعلومات فقط؛ بل نقلت الكيان المادي (الفيزيائي) للإنسان، ومن أبرز تلك المعالم والمؤثرات في المجتمع الإسلامي هي الرحلة الحجازية؛ بما تحمله من مضامين وجدانية، وآثار علمية وشعائر تعبدية.

وتقدم هذه الدراسة ترجمة لتلك الرحلة من خلال نقد وتحليل الوثائق التاريخية، لأسرة من أعرق الأسرة بأقصى الغرب العربي الافريقي، ارتبطت ووجدانيا بأسرة أخرى بشمال السودان الشرقي (مدينة بربر) فأفرزت تلك العلاقة ما نحن بصدد دراسة من الصلات والروابط الثقافية.

الإطار المنهجي

إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

من أهم النتائج التي اكتنفت الرحلة الحجازية؛ التواصل والاتصال بين المسلمين، ولما كان السودان

---

[٢]المرسوم والمعدود فى القرآن منظومة مشهورة فى المدارس القرآنية فى السودان يطلق عليها المغرب العربي التنزيلات

[٣]إشارة إلى حديث واثلة بن الأصقع في كتاب كنز العمال للهندي.

الشرقي أقرب محطات العبور فى طريق الحج الإفريقي، بات مكاناً للإقامة المستدامة وموطناً بديلاً لطوائف من العابرين،وذلك لدواعي واعتبارات مختلفة؛ وبذلك أصبحت تلك العناصر أهم أدوات التفاعل والاندماج الثقافي، عليه تركزت إشكالية الدراسة حول العلاقات الثقافية والآثار العلمية للرحلة الحجازية، وكيفية بحثها وتوثيقها والإفادة منها، وهو أمر عزت فيه الكتابة، وخلت المكتبة السودانية منه تماما، وبهذا تحاول هذه الدراسة أن تسد ثغرة في مصادر الدراسات السودانية في الموضوع. ويمكن عرض هذه الإشكالية من خلال التساؤل الرئيس، إلى أى مدى أسهمت الرحلة الحجازية فى توثيق أواصر الصلات وإقامة العلاقات الاجتماعية والثقافية بين المجتمعات الإسلامية ؟ وتتفرع من هذا التساؤل عدة تساؤلات أخرى:

١/ ما الأدلة والشواهد المادية على العلاقات الثقافية بين السودان الشرقي والغربي خلال العصور الإسلامية؟

٢/ كيف تم التواصل والاتصال بين (بربر) و(ازواد) رغم تباعد المسافات واختلاف البيئات؟

٣/ من هم السادة الكنتية ؟ وما علاقتهم بمدينة بربر خاصة والسودان الشرقي عامة ؟

٤/ ما الأسباب والملابسات التي تجعل من محطات طريق الحج وطناً بديل للموطن الأصلي؟

أهداف الدراسة: تسعى الدراسة إلى:

١/ الوقوف على آثار العلاقات الثقافية بين البلاد الإفريقية والعربية بسبب الرحلة الحجازية

٢/ إبراز الرحلة الحجازية كأهم عوامل الوحدة الإسلامية.

٣/ استخدام المنهج الديبلوماتيكى في إظهار العلاقات الثقافية للرحلة الحجازية.

٤/ إلقاء الضوء على مدينة بربر كمحطة فى معالم طريق الرحلة الحجازية في السودان.

٥/ التعرف على جهود السادة الكنتية وآثارهم العلمية والثقافية داخل وخارج حدود موطنهم.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من أهمية طريق الحج في إفريقيا؛ وأثره في بعث الروح الإسلامية والروابط الاجتماعية والثقافية بين أطراف البلاد الإسلامية، حيث توفر الأصول التاريخية شواهد حية وملموسة تمثل أبلغ وأعمق الآثار لتلك الروابط والعلاقات الثقافية.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج الوثائقي؛ الذي يعرف بالمنهج التاريخي (Historical Method) وهو الأسلوب الأنسب والأقدر على الاستجابة لمطلوبات البحث وتحقيق أهدافه، وتستهدي الدراسة بالملاحظة والمصادر التاريخية كأهم أدوات جمع البيانات.

مصادر الدراسة:

الدراسات الوثائقية:

إذا سلمنا جدلاً بأن اختيار المنهج يتوقف على طبيعة المشكلة، فإن مصطلح البحث الوثائقي الذي يعود إلى النشاطات العلمية التي تقوم على تعلم الحقائق والمبادئ الجديدة عن طريق دراسة الوثائق والسجلات؛ هذه الطريقة التي طالما استخدمها المؤرخون بشكل ثابت حتى عرفت بالمنهج

التاريخي(Historical Method)، فالمنهج الوثائقي منهج نقدي بالدرجة الأولى يعتمد على المصادر الأولية (الوثائق والمخطوطات) ويخضعها للدراسة والتحليل في شكلها ومظهرها الخارجي(النقد الخارجي)، وبنفس القدر يتوافر على مضمونها ومحتواها الداخلي (النقد الداخلي)، وهو ما يطلق عليه علم الدبلوماتيك وهو العلم الذي يهتم بدراسة الوثائق من حيث الشكل الذي يتمثل في الخصائص والمميزات الخارجية؛ التي تشمل المادة التي (كتبت بها) والمادة التي (كتبت عليها) الوثائق، بالإضافة إلى نوع الخط والأختام والتوقيعات طريقة الإخراج وكل ما يتعلق بلغة الوثيقة وصياغتها، وما بها من وقائع وأحداث تاريخية أو قانونية)**حمودة،١٩٩٩م:٢٧)** وقد ظهر هذا العِلم أصلاً لإزالة الشكوك التي تكتنف الوثائق المكتوبة والجدل الذي يثار حولها من أجل تجهيز الوثائق التاريخية للباحثين والمؤرخين للإفادة بمحتواها، فالوثائق لا تعد ذات قيمة أثرية وحسب، ولكنها تعطينا قوة متزايدة لفهم الطبيعة، وفهم أنفسنا ونحن ندرس سجلات الماضي. وفي هذا الجانب تكمن براعة البحوث الوصفية التي تتطلب مهارة التخطيط والتحليل وتتم بالاستعانة بالوصف الأرشيفي للمجموعات **(عوض الكريم،٢٠١٤م:١٢)** فالدراسة الحالية تدمج بين أسلوبي المسح ودراسة الحالة في وصف المجموعة.

الرحلة الحجازية:

من اللطائف وتوافق الأقدار التشابه اللفظي بين بداية كلمتي(الحج) و(الحجاز) الإقليم الذي تقع فيه مكة المكرمة؛ التى اصطفاها الله مكاناً لعبادته ومثابة للناس وأمناً، وقضى أيضاً بتجريدها من كل زخارف الطبيعة، حتى لا يلهو فيها العابد عن ذكره ويكون قصده خالصاً،فكانت مكة أجرد بلدة عرفها الإنسان، فهي حقاً فردوس العبادة في الأرض، وجنة الدنيا المعنوية، مع أنها عبارة عن واد ضيق، فبقدرما أفاض الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من الحلية(**أرسلان،١٣٥٠هـ:١٥**)وصف الله تعالى هذه الحالة فقال عن لسان سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع) ولما كان شد الرحال إلى واد كهذا اً ليس مما يرغب فيه الناس دعا قائلا(فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) أى تحبهم وتحب المكان الذي يسكنون فيه **(السعدى،٢٠٠٠م:٤٢٧)**

العلاقات والروابط الثقافية:

ترد كلمة الثَّقافة في اللُّغة العربيّة بعدة معان، من الفعل ثقف وثقّف بمعنى أدّب وربّى وعلّم، وفي (اللسان) أصبح حاذقًا فطينًا ملمًّا بالموضوع من كافّة جوانبه، والثِّقاف هو ما تُسوّى به الرِّماح كما ترد بمعنى التسوية والعقل والفهم وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى استثارة الذهن وتهذيب الذوق **(ابن منظور،د.ت:ثقف)** ومن معاني الثقافة: أنها سلوك تعلمي يكتسبه الأفراد كأعضاء في جماعات تعيش في المجتمع الواحد.وهي ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة، والمعتقد، والفن، والخُلق، والقانون، والعادات الاجتماعية.

وهي مجموع كمي من المعرفة البشرية وسلوكها المكتسب، ضمن الإطار الاجتماعي للفرد الواحد، ويستخدم تعبير النمط الثقافي ليعني ترتيباً متجانساً للسلوك البشري، والعادات الاجتماعية، ومنظومة القيم المرتبطة بها، تنتشر وتتطور عناصر الثقافة من مجتمع إلى مجتمع بالاتصال المباشر أو غير المباشر

بين الأفراد والجماعات أو الجماعات والجماعات، وبعملية يمكن تسميتها بالانتشار، وضمن التطور المتواصل في وسائل الاتصال وسُبلْ السفر، كلما ازداد تبادل عناصر الثقافة ازدياداً مطردا، ومع ذلك يكون النظام السياسي، أو الديني، نموذجاً مثالياً وأكثر قدرة على الانتشار؛ حينئذ تبرز العلاقات بين الأفراد والمجتمعاتر**(ضناوي،١٩٨٥م:٤٨٧)**

ففي العادة تكون منطقة الثقافة إقليماً جغرافياً يعيش فيه سكان يشتركون في سمات ثقافية متشابهة، وأنماط من البيئة الثقافية، وطرائق حياة متماثلة، ووظيفة معلومة، وقيمة متعارف عليها عند المجموعة الثقافية الواحدة، هذا ويمكن تصنيف أنماط السلوك الثقافي باعتبارها مؤسسات اجتماعية تمتلك كل وسائل التحكم في المجتمع، وتمتلك ما يحكم التفاعل الداخلي بين أعضائها؛ وهى مؤسسات تتضمن كُليةُ المعرفة والمعتقد الذي تشترك فيه الثقافة ووسائلها بغرض الاتصال؛ وهى مؤسسات تتضمن كل الأدوات والمهارات والقدرات؛ وهي التوجهات الراسخة، والعواطف، والمفاهيم التي تتضافر لتؤثر على السلوك الإنساني. وتصبح المجتمعات الإنسانية بقيادة أنظمتها الثقافية عوامل بيئية فاعلة. وبما أن المجتمعات الإنسانية تستخدم وتعدل عاداتها بوسائل ثقافية متباينة، فمن الممكن أن تبرز أنماط واضحة ذات طابع ثقافي مميز، **(mawdoo3,2016)**

الدراسات السابقة:

- ركز **(أبوسليم،١٩٦٨م)** على جانب المضمون، في تحقيق مخطوط في تأريخ مؤسس الختمية " الإجابة الإبانة النورانية في شأن صاحب الطريقة الختمية مولانا محمد عثمان الختم"بينما جاء النقد الخارجي الذي يتعلق بدراسة المخطوط من حيث عدد الأسطر ونوع الخط والإخراج والهوامش والحواشي وبداية كل نسخة ونهايتها وما إلى ذلك، عدا عدة سطور واصفة النسختين التن عثر عليهما الباحث وتواريخهما، في حين أسهب في تاريخ ملاك النسخة الثانية، وهم أسرة محمود بادي حيث تولى ابنهم خليل إدارة مطبعة الحجر في عهد المهدية، ولم يزد الوصف على إخبارنا عن نوع الورق"ورق الجابر الأبيض السميك الذي كان شائعا في التركية والمهدية.." الاّ أنه ختم المقال بعبارة : ".. هذه دراسة أولية احب أن تضيف الكثير لمحصولنا من البيانات التاريخية" الأمر الذي يعزز أنها دراسة أو لمحات سريعة للمخطوط، ولو أن ذلك لا يعفي الرجل- وهو سادن الوثائق فى السودان- من التطرق لوصف الجوانب المهمة من النقد الخارجي أو الديلوماتيكى، أما علاقة هذا المقال بالدراسة الحالية فتتمثل في تحقيق النصوص، ونقد الأصول التاريخية، مع الفارق بين طبيعة المخطوط والوثائق التي نحن بصددها.

- حاول كل من**(HOFHEINZ, KARRAR, O'FAHY,1993)** تسجيل مادة وثائقية عن الطريقة الإدريسية ومؤسسها السيد أحمد بن إدريس الفاسي، تحوي خطابات مختلفة لتلامذته حوالي (٣٢) خطاباً، تمثل مجموع الفتاوى والإرشادات التي بعث بها الأستاذ ردا على أسئلتهم، استعرض الكتاب -الذي جاء نتيجة للأبحاث المتصلة التي عقدت بجامعة بيرجن بالنرويج- الخطابات والشخصيات المرسل إليها والمظان التي استقيت منها مصادر تلك الخطابات، وهي: (١) أعطار أزهار حظيرة التقديس في كرامات السيد أحمد بن إدريس(تحقيق) صالح الجعفري، القاهرة: ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
(٢) ترجمة الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم صاحب العقد النفيس مولاي المغربي الشريف سيدي أحمد بن

إدريس(مخطوطة)

(٣) أحمد بن ادريس الرباطابي، كتاب الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية **(أبو سليم،١٩٩١م)** مع إيراد أرقامها ورموزها، ومكان حفظها (دار الوثائق القومية الخرطوم).

هدف **(الحسن،١٩٩٩م)** إلى الحصر الكمي لإبراز التنوع الموضوعي لمصادر الخلافة الصكتية في أشكالها وأحجامها المختلفة، وضبطها ببليوجرافيا للتعريف بها خدمة للباحثين، ومن ثم دراسة المصادر من الناحية الببليومترية بغرض إظهار حجم التحقيق والنشر، استخدمت الدراسة المنهج التاريخي (الوثائقي) والوصفي التحليلي بطرقه المسحية والإحصائية، وتوصلت إلى عدة نتائج منها أنها قدمت خدمة ببليوجرافية متميزة بإسهامها في الضبط الببليوجرافي الموضوعي والقطري والإقليمي والعالمي، ووفرت نموذجاً متفرداً جمع بين الأشكال المختلفة للمواد المخطوط منها والمطبوع فضلا عن غير المنشور، كما أبرزت حجم المساهمة العلمية لمؤسسي الخلافة الصكتية والدور الكبير الذي أدوه في مجال التأليف المخطوط.

– سعى **(عوض الكريم،٢٠١٤م)** لتسليط الضوء على التراث السوداني المخطوط عامة وتراث الغبش وإسهاماتهم العلمية في التوثيق والكتابة على وجه الخصوص. والكشف عن الملامح والمؤشرات الديبلوماتيكية للوثيقة العربية في السودان، وإخضاعها للتحليل والدراسة الدبلوماتيكية والوقوف على اتجاهات الإنتاج الفكري السوداني المخطوط، وتوصل إلى أن أسرة الغبش نجحت في تأسيس مدرسة متميزة؛ حافظت على مصادرها المدونة في شكلها المخطوط، وأسهمت بدور رائد في الحركة الفكرية، أصبحت بفضلها علوم القرآن في السودان لا تقل درجة عن مناهج رصفائهم في مصر والحجاز.بينما عكست مؤشرات دراسة الوثيقة عند الغبش مظاهر الثقافة العربية الإسلامية، وجسدت أصالة وسمات وملامح الوثيقة السودانية عبر العصور. أما ارتفاع شأن ثقافة الاتصال المكتوب في المهدية، فقد جاء ترجمة حقيقية لتفاعل القاعدة مع المركز.

الإطار النظرى:

التواصل والاتصال للرحلة الحجازية ونتائجها وآثارها:

يعد السودان الشرقي قديما، المعبر البري الآمن والأقرب والآهل بالسكان بالنسبة لقوافل الحجيج القادمة من العمق الإفريقي، وهو ما كان يعرف بطريق الحج القديم (سواكن/تمبكتو) الأمر الذي أعطى أهل البلاد فرصة التواصل مع أهل العلم والمعرفة من قبائل تلك البلاد التي تعبره بقوافلها وأحمالها براً لأداء فريضة الحج.حيث أدى موسم الحج إلى التواصل الفكري بين أطراف البلاد العربية والإسلامية من درجة التواصل النخبوي "الموسمي" إلى وحدة حقل ثقافي وسط قوامه "رحلات علمية وإجازات واستجازات في جميع الاتجاهات، وتبادل على مستوى الإفتاء والاستفتاء يدل على تشابه المعطيات والنوازل و وحدة أدوات التفكير والاجتهاد."

مثّل موسم الحج ملتقى "لمثقفي" العالم الإسلامي يتلقون فيه مع بعضهم البعض للتحاور والتشاور حول مشاغلهم الفكرية المختلفة. وبذا مكّن التفاعل الدائب بين المركز والأطراف، من الحفاظ على بقاء ووحدة الفضاء الثقافي العربي الإسلامي،كما أن النابهين من الطلبة والفقهاء ظلوا يرحلون إلى المشرق من كل

الأصقاع الإسلامية، أداء لفريضة الحج وسعيا إلى التحلي بإجازات تكون عالية السند، مما أنتج في نهاية المطاف شبكة من العلاقات الفكرية الرائدة في أصقاع العالم الإسلامي، وبذلك رفدت الرحلات حركة العلوم العربية الإسلامية وانتقال مصنفاتها وإجازات منتجيها ومستهلكيها من العلماء والطلبة. ومن هنا فإن اللقاء بين الفقهاء الشناقطة وأضرابهم في المشرق والمغرب ساهم في إنشاء علاقات وروابط اجتماعية وثقافية امتدت آثارها عبر الأجيال، وفى مقدمتهم الكنتية.

من هم السادة الكنتية وما آثارهم العلمية؟

انتشرت الثقافة العربية والإسلامية في إفريقيا جنوبي الصحراء بعد دخول الإسلام إلى القارة وتشبع بها أبناؤها وساهموا بدورهم في استمراريتها وإغنائها حيث ظهر أفراد وأسر تركوا بصماتهم الواضحة في هذا الميدان والأسرة الكنتية هي من أشهر الأسر العالمة في السودان الغربي والصحراء الإفريقية الكبرى؛ التي توارث أبناؤها العلم والمعرفة والصلاح أبا عن جد،فهي تنتمي إلى قبيلة كنتة البكري، وهي قبيلة عربية تنسب لعقبة بن نافع الفهري التي انتشرت في الصحراء الإفريقية في دول مالي وموريتانيا والجزائر، من (تكانت) بموريتانيا إلى (إدرار ايفوغاس) شرق مالي، تحركت في القرن (١٢هـ/١٨م) بين (الحوض) في الجنوب إلى (الساقية الحمراء) في الشمال و(توات) في الشرق، وامتد فرع منها إلى (ولاتة) و(وادي درعة) و(أزوا) و(تنبكت). كذلك توجد بعض فروع من هذه الأسرة في السنغال وغامبيا والنيجر، بيد أن نواتها كانت في (توات) قبل أن تتوزع في المناطق المشار إليها.

أبرز زعيم للقبيلة الشيخ عمر بن أحمد البكاي الكنتي المولودفى ١٤٦٠م بالصحراء، وقد خلف والده في الزعامة الروحية لقبيلة كنتة، والتقى الشيخ المغيلي التلمساني، شيخ الطريقة القادرية وناشرها بين أفراد القبائل الإفريقية الصحراوية والسودانية، وسافر معه إلى المشرق، حيث أدى فريضة الحج، قبل أن يرجع الشيخ عمر ت (٩٦٠هـ/١٥٥٣م) بعد ذلك إلى الصحراء وبلاد السودان، صار الشيخ عمر بن أحمد البكاي مقدم الطريقة القادرية في المنطقة بعد وفاة شيخه المغيلي سنة ١٥٣٢م**(صادقي،٢٠١٢م:٢٢)**.

أما أشهر أعلام كنتة وتكوينهم العلمي ومكانتهم ومساهماتهم وعطاءاتهم العلمية في مختلف المسائل الفقهية والفكرية فإن أبرزهم :

• المختار الكنتي الجد : هو محمد بن المختار ابن أحمد ابن أبي بكر بن محمد حبيب الله بن الوافي بن سيد اعمر الشيخ بن الشيخ سيد أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي. ذكره صاحب: "منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور" الطالب بوبكر بن أحمد المصطفى المحجوبي الولاتي، يروي الشيخ سيدي محمد الكيفية قصة انتقال تعاليم الطريقة القادرية إلى جده أستاذ أساتذة الشيخ سيدي عمر الشيخ قائلا بعدما تضلع من فنون العلوم، مسافرا إلى جهة السوس الأقصى، لقى الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي، فلزمه برسم التقشف والمجاهدة ثلاثين سنة، فلما مات الشيخ قال لبنيه وسائر مريديه قولته المشهورة وهي إحدى علامات الاستخلاف عند المتصوفة : "من كان منكم ملتمسا مني نفعا، فليلتمسه من هذا، فإنه احتوى على جميع ما عندي، وامتصني كما يمتص الآكل التمرة ويلقي بالنواة ".

• محمد بن المختار، الخليفة: الابن الخامس من أبناء الشيخ سيدي المختار الكبير ولد حوالي

١٧٥٦م اجتذب علمه وورعه منذ صغره اهتمام والده الذي بلغت شهرته الآفاق إليه فاختاره لخلافته الروحية عندما حضرته الوفاة سنة ١٨١١م. لم يترك سيرة ذاتية عن نفسه، باستثناء بعض الإشارات العابرة التي نجدها في ثنايا كتبه، وهي في الأغلب الأعم تتحدث عن بعض المواقف التي حصلت له من شيخه ووالده وبعض من تلاميذه **(مارثي، ١٩٨٥م:٣٩)**.

استمر الشيخ سيدي محمد الخليفة في الزعامة الدينية القادرية خمس عشرة سنة كانت حافلة بالعطاء الفكري الزاخر، له من التآليف والمصنفات ما يربو على الأربعين : من الفقه وعلم الأصول والكلام وأدب السياسة إلى التصوف وعلم العروض والشعر وعلم الأنساب:ألف في

مجال الفقه : إرشاد السالك إلى أقوم المسالك،

في مجال علم الأصول:

١- ترجمان المقال ورافع الإشكال : وهو شرح نظم ورقات الجويني

٢- نظم ورقات أبي المعالي الجويني واسمه منهج الفعال

ب- في علم الكلام له : بهجة النفوس.

ج- في أدب السياسة له: أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام،

د- في التصوف وفيه أكثر أعماله :١/ جنة المريد دون المريد، وهي نموذج للأدب الصوفي الجامع لموضوعات التصوف السني المانع لشطحات الإشراقيين والحلوليين، وله في هذا الفن كتب كثيرة أخرى منها :٢/الطرائف والتلائد في كرامات الوالدة والوالد، ٣/ السلم الأسنى إلى أسماء الله الحسني،٤/ الدراري السارية في الأجوبة الخيرية،٥/ كتاب الإسراء،٦/ شرح المثلث خالي الوسط٧/ شرح الورد القادري، ٨/ العقد النظيم على أقوال العلماء في الاسم الأعظم،٩/ الفوائد النورانية والفرائد السنية في شرح الاسم الأعظم،١٠/ مفسر المقال لمضمر الحال،١١/ الإيجاب والسلب بجلاء مرآة القلب،١٢/ منح القدوس في عبق ثمر أحمد الشموس وله في هذا الفن أعمال أخرى يطول حصرها.

هـ- فى علم العروض والشعر :

١/الخاتمة على الأبيات والألقاب وللأجزاء والأعاريض والأسباب

فى علم الأنساب له كتاب شهير : الرسالة الغلاوية والتي تعد بشهادة الكثيرين قمة فى الموضوع،وله كتب أخرى ذات طبيعة سجالية يرد فيها على خصومه في شتى المجالات نذكر منها:١/الرسالة البارعة القاطعة لدابر سييء اعتقادات المعاند القارعة،٢/ علم اليقين وسنن المتقين بحسم الإتاوة في حق المستحقين،٣/ الصوارم الهندية بحسم دعاوى المهدية.

• المختار بن محمد بن المختار، الحفيذ

• أحمد البكاي بن محمد بن المختار: ومن أبرز الأحداث التي جرت في عهده حوالي سنة ١٨٦٠ بعثت ملكة بريطانيا إليزابيت الأولى هدايا ثمينة للشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة الكنتي مع رسالة شكر مختومة بالطابع الملكي، وربما يكون هذا الأمر أولَ مظاهر العلاقة الدبلوماسية مع بريطانيا. وكان سبب هذا الاحتفاء وتلك الرسالة إكرامَ الشيخ الكنتي للرحالة الجغرافي الألماني "هنريش بارث"، مبعوثِ صاحبة الجلالة إلى إفريقيا،الذي كان ثالثَ أوروبي يصل إلى مدينة تنبكتو سنة

١٨٥٣م(**صادقي،٢٠١٢م:٤٥**).

الطريقة الكنتية القادرية:

تعد الطريقة القادرية من أهم الطرق الصوفية وأوسعها انتشارا في العالم الإسلامي، وأبلغها تأثيرا فكريا واجتماعيا وسياسيا في الكثير من البلدان وهى (القادرية)المنسوبة إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى "٥٦١ هـ-١١٦٧م" وقد انتقلت إلى المغرب عن طريق أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي "ت٥٩٤-١١٩٨م"، وأخذها عن شعيب الأنصاري عبد السلام بن مشيش؛ الذي انتشرت على يده بصفة محدودة، وسوف يبذل الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي "ت٩٤٠هـ/١٥٣٣م" جهودا كبيرة في نشر القادرية، فقد زار بلاد السودان ومنطقة منحنى نهر النيجر وكان وفيا لمرجعيته الفكرية ونشر القادرية حيثما حل، وعنه أخذها من هذه البلاد الشنقيطية الشيخ سيدي أعمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي "ت٩٥٩هـ- ١٥٥٢م" الذي ينسب إليه تأسيسها في السودان والصحراء.

البكائية الكنتية:

وهي منسوبة إلى مؤسسها الشيخ سيد أعمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي الذي زار توات عدة مرات ولقي المغيلى وتتلمذ عليه ردحا من الزمن في بداية القرن ١٠ هـ إلا هذه الشعبة لم تبلغ أقصى مراتب الازدهار والانتشار إلا مع الشيخ سيدي المختار الكنتي ت (١٢٢٦هـ-١٨٢١م) والذي يعد بحق مؤسس التصوف الطرقي في البلاد الشنقيطية (**صادقي،٢٠١٢م:٣٥**).

ومن اختلاف المناطق التي جاء منها تلاميذ الشيخ سيدي المختار الكنتي وأهمية الأدوار التي قاموا بها فيما بعد يتضح أن هذا الفرع من القادرية في شنقيط كان دائما في قمة الهرم الديني والسياسي، حيث يبدو أن العلماء الذين حملوا الهم العام على أكتافهم كان الكثير منهم شيوخا في هذه الطريقة فالدور الذي قام به الشيخ سيد المختار الكنتي من إصلاح بين المتخالفين وعزل وتولية للأمراء وخاصة في منطقة ازواد كلها أمور تدل على ذلك الدور، ولم يكن الشيخ سيديا الكبير في منطقة القبلة إلا مثالا آخر على التأثير القوى للبكائية القادرية في بلاد شنقيط.

رحلات الحج والجهود العلمية حولها:

نتيجة للرحلات الحجازية برزت مصنفات علمية قيمة اخترنا منها فقط ما كان عنوانها (الرحلة الحجازية) فى شكل جدول رقم(١) يبين عنوان الكتاب والمولف والتاريخ ما أمكن ذلك

م	عنوان الكتاب	المؤلف	التاريخ
١	رحلة إلى الحجاز	إبراهيم عبدالقادر المازني	١٤٣١هـ
٢	الرحلة الحجازية	أبي عبدالله محمد بن أحمد الحضيكي	١٤٣٢هـ
٣	الرحلة العياشية للبقاع الحجازية	عبدالله بن محمد العياشي.	
٤	الرحلة الحجازية	محمد بن عثمان السنوسي	
٥	الرحلة الحجازية	محمد لبيب البتنوني	
٦	رحلة الحجاز	محمد رشيد رضا	
٧	الرحلة النجدية الحجازية	محمد بهجت البيطار	١٣٣٨هـ

٨	رحلتي إلى الحجاز	محي الدين رضا	
٩	رحلة حجازية	محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي	١٣٦٥هـ
١٠	اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية	أبي الفيض محمد بن عبدالكبير الكتاني	١٤٣١هـ
١١	رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز	بيرتون	
١٢	الرحلة السعودية الحجازية النجدية	محمد سعود العوري قاضي بيت المقدس	
١٣	المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة	محمد بن حسن بن الشريف	

جدول رقم (١) يبن نماذج لمصنفات بعنوان الرحلة الحجازية

أما ماعرف بالرحلات الشنقيطية؛عندما استقل الحاج الشنْقِيطي عن مثيله التّكْرورْي، انطلق ركب الحاج من بلاد شنْقِيط في ق١١هـ/١٧م فلا غرو أن عرف أهل هذه البلاد بولعهم بالحج، يؤكده ما جاء من أنه قد يحج من الدار من أهل شنْقِيط كلها لا يبقى فيها أحد.

هكذا نرى الجهود العلمية وحركة مصنفات الرحلة الحجازية وانتشارها في البلاد خاصة المغاربية.

م	عنوان الكتاب	المصنف(المؤلف)	النشر
١	الرحلة الحجازية	محمد يحيى الولاتي	مطبوع
٢	رحلة إلى الحجاز	محمد فال بن بابا العلوي	
٣	رحلة حج البُصَادِي	الشيخ المعلوم البُصَادِي	نظم سيديا
٤	رحلة للحجاز	محمد يحيى بن أبوه اليعقوبي	
٥	رحلة إلى بيت الله الحرام	محمد الأمين الجكني الشنقيطي	منشوره
٦	رحلة الشيخ ماء العينين	ماء العينين	تحقيق مربيه ربه
٧	رحلة المُنَى والمِنّة[٤]	الطالب أحمد (بن طوير الجنة)	توجد نسخة بفاريبورغ بألمانيا
٨	رحلة إلى الحجاز	محمد أمين فال الخير	

اهتم الفرنسيون بهذه الرحلة فنشر الأستاذ ديستانك عرضا لأبرز محتوياتها في أحد أعداد (المجلة الإفريقية) الشهيرة La Revue Africaine الصادر سنة ١٩١١، كما قام مستشرق إنجليزي اسمه هنري ثرلوال نوريس H.T.NORRIS (أستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن) بترجمة النسخة المحفوظة بوادان (موريتانيا) إلى اللغة الإنجليزية ونشرها عام ١٩٧٧م.

جدول رقم (٢) يبن نماذج لمصنفات الرحلة الحجازية لبلاد شنقيط

مدينة بربر والرحلة الحجازية:

تعد مدينة بربر القديمة، بشمال السودان، أقدم مدينة إسلامية في المنطقة، حيث يرجع تاريخها إلى الفترة ما قبل ١٥٠٤م. وقد ظلت المدينة زاخرة بالحركة والحياة إبّان حكم الإدارة التركية إلى عام ١٨٨٥م،تميزت مباني المدينة بالطابع المعماري الإسلامي، وشيدت من الطين، وأحيانا من الطوب الأخضر، وهي مادة البناء المتوافرة والملائمة مع البيئة والمناخ الحار للمنطقة الشمالية من السودان، لذا ظلت المباني قائمة ومتماسكة لانعدام الأمطار والرطوبة والعواصف التي عادة ما تؤثر على متانة المباني الأثرية القديمة، كما استخدم سعف النخيل لأسقف المباني في بربر القديمة لبناء أربعة جوامع ملحق بها (خلاوي) لتدريس القرآن، بينها خلوة خاصة بتدريس القرآن للنساء في مسجد محمد المصري العالم الإسلامي المعروف، وتعد هذه الخلوة أول مدرسة خاصة بتدريس القرآن الكريم للنساء في العالم الإسلامي(**محمد الحسن،٢٠٠٤م**).

كما تعد بربر من أقدم المدن الإسلامية في أواسط إفريقيا، وقد أدت دورا حيويا كمحطة على طريق الحجاج إلى الأراضي المقدسة، فقد كانت القوافل القادمة من أنحاء مختلفة من إفريقيا تأتي إليها ومنها إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر ثم إلى الأراضي المقدسة.

وقد وجدت في المدينة القديمة، مدينة للحجاج، قسمت فيها المباني لتستوعب حجاج كل منطقة أو بلد على حدة. أيضا كان للمدينة موقعها التجاري كرابط ما بين ساحل البحر الأحمر والمدن المطلة على ساحله الغربي، مثل جدة والمخا والعقبة(**محمد الحسن،٢٠٠٤م**).

وبقيت المدينة نشطة ومزدهرة ومعلما إسلاميا بارزا حتى وصول الحكم الثنائي عام ١٨٩٨م عندما أنشأت الإدارة البريطانية مدينة عطبرة.

أشار خبراء الآثار إلى أهمية المدينة التى تبرز على خير مثال معالم العمارة الإسلامية في السودان والمنطقة، كما أن المباني والمعالم المهمة لا تزال قائمة وشامخة، رغم مرور عدة حقب عليها، ومنها المساجد والخلاوي، والمركز (الإدارة الحكومية) ومخزن الذخيرة والطوابي وأول مدبغة خاصة بتلوين الثياب أو صبغها، وقد رفعت هيئة المتاحف والآثار السودانية مذكرة إلى جامعة الدول العربية بشأن اعتبار بربر أثراً إسلاميا متميزا تستحق التعاون من أجل المحافظة على مبانيها والمساهمة في ترميم معالمها المهمة(**محمد الحسن،٢٠٠٤م**)

وبما أن مدينة بربر تعد حاضرة النيل، ومن أشهر المدن السودانية، ولأنها مع عراقتها وشهرتها تجمع بين سمات وملامح المجتمع الريفي والمجتمع الحضري، فقد اتخذتها الدراسة من المحطات المهمة فى طريق الحج وتصلح لتكون عينة ونموذجا لمناطق التراث المخطوط، والذى حفظ لنا آثار الرحلة الحجازية ووثقها.

فالمدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل على بعد حوالى (٣٨٠) كلم شمال الخرطوم، على ارض رملية

مرتفعة؛ تمتد باتجاه الجنوب، يطلق عليها (قوز الفونج[٥])، وقد يطلق الاسم مجردا بالتعريف (القوز) ليعني (بربر) أحياناً، وفى شأن تسميتها،ترد عدة تفسيرات للإسم(بربر)، منها أنه اسم لامرأة حكمت المنطقة تسمى (بربرة)، وهنالك تفسير آخر ينسبه إلى حركة القوافل (بالبر)، ولكنه يرجح أن الاسم ظهر في الفترة العربية الإسلامية (فترة الفونج)، ومن أسماء بربر القديمة (المخيرف)[٦] لأنها أطيب مناطق السودان هواءً وأوفرها خيراً (**الصادق،٢٠٠٦م:١٨١**) ومن أسماء أحيائها التي أطلقت عليها قديماً من باب التغليب النخيرة. والناظر إلى خرطة السودان القديمة يرى أن مدينة بربر قد سيطرت على منافذ التجارة، فهي أقرب نقطة على النيل من سواكن والبحر الأحمر، وكذلك من كرسكو في مصر، فهي تمثل الميناء الداخلي.

يقول أبو سليم: "كانت بربر مدينة السودان الأولى تأتيها قوافل التجارة من سواكن وصعيد مصر، ومن دنقلا وسنار والفاشر، وكل عمق من أعماق الثروة، وكل فج من فجاج التجارة، وعلى كل ضامر، منها تخرج القوافل محملة وتعود من حيث أتت، وكانت شهرتها تفوق شهرة العواصم السياسية كالفاشر وسنار لغلبة التجارة على السياسية، وكان المهتمون بالسودان هم التجار، لا أهل السياسة، فصار لبربر من الحظ ما كان من أهمية وشهرة تفوق ما لغيرها من المدن "ويستطرد مضيفاً" بقيت بربر مدينة عظيمة وعاصمة لمملكة الميريفاب وأكبر مركز للتجارة في السودان لفترة طويلة... ولما جاء بوركهارت لاحظ أن التجارة ومن ثم الأهمية أصبحت تتحول من بربر إلى شندى" (**أبو سليم،١٩٩٢م:٨١**) وعلى ذكر الرحالة بوركهارت وعلاقته بالمدينة؛ التي دخلها –٢٣ مارس ١٨١٤م تمام العاشرة مساءً؛ قبل قرنين من الزمان من عامنا هذا– خلال رحلاته في بلا النوبة والسودان، ووصفها وصفا دقيقا، فاق تصوير المخترعات الحديثة في تسجيل الأحداث، وبزها في إعطاء صورة حية تموج بالحركة شملت مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية؛ كأنها رأي العين، خلال(٢٥)[٧] صفحة، (١٦٩– ١٩٥) أورد كلمة (بربر) أكثر من (٧٠) مرةً في مجمل الكتاب، ورغم أنه سخط عليها وضاق زرعاً بأهلها، فقد أعطى وصفاً صادقاً عنها بكل المقاييس، وكما يقال (الفضل ما شهدت به الأعداء) واصفا الإنسان (الملامح والسحنة) والنشاط البشرى (الزراعة والتجارة الرعي)، والمأكل والمشرب والملبس والمسكن والأثاث والعادات والتقاليد في الأتراح والأفراح (قياسا على المجتمعات المشابهة) كما وصف الحيوان مأكله ومسكنه، ولم يترك حتى الآفات (الفئران)، إلا أنه خلط ذلك ببعض الأوهام المضحكة مثل تفسيره للتحية "لعلك طيب" والتي أبعد النجعة فيها ففسرها بـ(نعلك طيب) قائلاً "ولعلهم يريدون هل أنت من القوة بحيث تمشى على نعلك ما شئت ان تمشي!؟" (**بوركهارت،٢٠٠٧م:١٨٧**).ورغبةً في الاختصار وخشية من مغبة الإطالة، اوردنا البيانات في شكل سمات نمطية، فجاء تدوين ملاحظات الرحالة الغربي في شكل جدول رقم (٢).

م	المظهر	الوصف	ملاحظات

(٥) هنالك حي يقع جنوب مدينة بربر مازال يعرف بهذا الاسم.

(٦) يوجد بها، مسجد (المصري) والذى دفن بها والمقبرة إلى الآن تعرف به

(٧) هذا غير الجزء المحذوف من قبل المترجم لشدة سخفه وتحنيه على المنطقة واهلها.

١	الإنسان (الملامح)	السلالة/ البدن/ اللون/ القسمات/ القامة/ الشفاه/الأنف/ الوجه/الساق والقدم/ الشعر/ الشوارب/ اللحى/ الجلد/ اليد/ الخد	سلالات عربية جميلة
٢	العمران	الشوارع/ مواد البناء/ الأسقف/ المروق/ الحصير/ البوص/ الميزاب	اللّبِن/ الآجر
٣	المسكن	الحيشان/ الغرف/ النوافذ (الطاقة)/ الرواكيب/ الخيام (الخريف)	مخازن الغلال
٤	الاثاث	الصاج/ الدوكة/ العنقريب [٨] (القِد) [٩] / السرير (جريد)/ البرش	الضبة والمفتاح[١٠]
٥	المأكل	الملاح/ الكسرة/ اللبن/ اللحم/ البن/ البلح/ الثريد/ الخبز/ الحساء	طريقة الطحن
٦	المشرب	البن/ الآبريه/ البوظة/ المريسة/ ام بلبل/ الكأس/ السمن/ القربة	الانداية
٧	الملبس	الفتقة/ الرحط/ الثوب/ الدمور	ملابس الصبيان
٨	المركب	الخيل/ السرج/ الإبل/ الأغنام والماعز/ الأبقار/ العلف/ اللبس[١١]	أسماء الخيول
٩	العادات	التحيا/الحروب/الزواج/المآتم/الصداق/الجوار ي/الدلكة/الكحل/ دهن[١٢]	القيلولة
١٠	المهن	تجارة / طرق الزراعة/ أدواتها/ السماد/ الفيضان/ الرعى	وصف الزراعة
١١	الاوبئة	الحمي (الوِرْدة)/ الجدري/التطعيم/الرمد/الجروح/المجاعات/	الامراض السرية
١٢	العملة	الريال الإسباني [١٣] /السلقة/ المد/ الدمور/ الضرائب/ البضائع/ السوق	محاصيل وخضر
١٣	التعليم	حفظ القرآن/الدامر/ شندى/المقررات/الفقراء/ سن الدراسة	التمائم والاحجبة

(٨) العنقريب كلمة (حبشية) ذكر إنها (بشارية) وتصدر إلى صعيد مصر

(٩) عندما تكون سداته من الجلد يسمى بالقد

(١٠) يصنع من الخشب بتقنية محلية ويسمى المفتاح (الكلب)

(١١) درع يقي الحصان في الحرب

(١٢) يسمي (الكركار) دهن معطر يصنع محليا خاص بالنساء

(١٣) القسمة=ريالان، المثقال=٤ريال، نصف الوقية=٨ ريالات، الوقية=١٦ ريال وهى من عيار الذهب

جدول رقم (٣) مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية في بربر كما وصفها بوركهارت

في الحكم المصري (التركية السابقة) أصبحت بربر عاصمة للمديرية، وأحياناً عاصمة للإقليم الذي يمتد من الحد الجنوبي لمديرية دنقلا إلى حدود الخرطوم، وأحياناً أخرى عاصمة للإقليمين (مديرتي دنقلا وبربر) واكتسبت بذلك أهمية إدارية وسياسية.

لما انتعشت التجارة بفضل الإدارة المصرية، وتوسعت الحركة التجارية بين مصر والسودان، وانتعشت تجارة سواكن؛ كان حظها عظيما في ربط الطرق التجارية؛ إضافة إلى طريق الحج ولاسيما بعد استتباب الامن، أما في المهدية فقد احتلت حيزا مرموقا، لأنها على طريقين لا يتأتى إنقاذ غردون إلاّ بهما، وهما طريق بربر سواكن، وطريق النيل من مصر، أما العهد الثنائي فقد خفت بريقها بعد إنشاء صنوتها وقرينتها في المنطقة مدينة عطبرة (**أبوسليم،١٩٩٢م:٨٢**)

شكلت مدينة بربر ظاهرة عمرانية متميزة؛ حيث اجتمعت فيها عناصر القوة القبلية والملك، واتساع الأراضي الزراعية مع الوضع الاستراتيجي، وحملت طابع المدن الإسلامية، حيث تقف مبانيها شاهدا على ذلك الدور الثقافي الذي قامت به مدن القوافل العربية، من خلال قوافل التجارة والحجاج والمسافرين، لا جرم أن ذلك الوضع أتاح للقيم الثقافية أن تؤدى دورها بكفاءة نلحظها في التراث المادي المتمثل في عمارة المدينة مثل مسجد المصري الذي ظل قائما حتى (١٩٧٧م) ممثّلاً الأثر المصري والحجازي فى العمارة الإسلامية، كما أظهر التسامح الديني من خلال الأثر المعماري لبناء الكنيسة (**الصادق،٢٠٠٦م:١٩١**). بالإضافة لذلك برز التراث الخطى الذي مازالت تحتفظ به الأسر العريقة وتحافظ عليه مثل: (الريشاب) (الوهاهيب) (الخفاب) (آل البدري) (الأحمدية) (الشوافعة) (الشكولة) تبين لنا تلك الوثائق ولاسيما وثائق (الشكلي) متانة وعمق العلاقات بين السودان وغرب إفريقيا، حيث شكلت المراســـلات أساس هذه الدراسة.

الجانب التطبيقى للدراسة:

الدراسة الوثائقية (الدبلوماتيكية):

وهو الجزء العملي أو الميدان الحقلي التطبيقي للدراسة، يتناول البحث فيه الخصائص والسمات والمميزات للرسائل المدروسة، ويعتمد على أعمال القوانين المتعارف عليها والسائدة في نطاق مجال دراسة الوثائق، وذلك باتباعنا الخطوات التالية:

١/ تصوير الوثيقة بواسطة الماسح الضوئي (scanner).

٢/ الوصف الإرشيفي العام الذي يشمل تتبع تاريخ المجموعة ككل.

٣/ نشر الوثائق وفهرسة الوثائق (القراءة التفصيلية للنص) كالآتى:)أ) تقسيم الوثيقة حسب عدد السطور والفصل بين السطر والآخر بعلامة (//). (ب) التعليق باستخدام الهوامش لتفسير الغامض، وبيان أماكن السقط والسهو والمحو والإلحاق والتصحيح والاختصارات والرموز.

(ج) الإشارة إلى إضافة (الباحث) بعلامة][وعلامة(؟) لكذا و(..) للسقط أوالنقص. (د) المقارنة والمقابلة بين مضمون الوثيقة وغيرها من النسخ ولاسيما المطبوع منها.

٤/ تحليل النص وتقويم المضمون(النقد الداخلي) بصورة مجملة،

٥/ التعليق الدبلوماتي: لما كانت الوثائق من أوعية المعلومات التي تحمل شحنة كبيرة من المعلومات والحقائق المضغوطة بخليط من المعلومات تشمل الحياة البشرية بمختلف مظاهرها من النظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والعادات والاعتقادات والتقاليد الدينية والأساليب الفنية والأدبية؛ والمعمارية؛ فضلاً عن الفقه والمعاملات التجارية؛ وما إلي ذلك من عناصر متداخلة يهتم بها علم الوثائق، ويسبر أغوارها، ويستقصى في تفسيرها وتأويلها وذلك يقتضى ألا ننظر إلي الوثيقة في مجموعها بل يقوم ذلك المنهج على تفتيتها وتجزئتها إلى وحدات، فالنظرة الكلية تمتحن بالمعارف التفصيلية، نرى هذه المجموعة اشتملت على تلك النواحي التي أشرنا إليها حيث تغلب عليها الناحية الأدبية فيظهر هذا الكم من الشواهد والاستشهادات فضلا عن الفقه وعلوم الحديث واللغة.

الوصف الإرشيفى:

بلغت مجموعة الرسائل (٧) خطابات مستلمة من قبل الشيخ زين العابدين بمدينة بربر وهنالك رسالة ثامنة واحدة قطعة رقم (٢) خطاب من الشيخ زين العابدين(البكاي) إلى والده الشيخ محمد الخليفة أتى بها معه من منطقة ازواد بالإضافة للقطعة التاسعة التى تمثل العنوان، قام الشيخ البكاى ابن الشيخ الوقيع الشكلي (من مواطني مدينة بربر) بنسخها من الخطابات الأصلية التي لا نعرف عنها شيئا من حيث (نوع الورق الذى كتبت عليه والخط والحبر والهوامش والإخراج) فأصبحت هذه النسخ بمثابة الأصل المفقود، وهى وثائق تنشر لأول مرة، آلت للشيخ محمد يوسف الذى كان يعمل في التدريس بصحبة الشيخ الوقيع الشكلي، وبعد أن صاهره صار القيّم على الخلوة والمسؤول الأول عن محتوياتها، والذي كان يحافظ عليها بقدسية شديدة، وبعد وفاته عثر عليها إبنه الأستاذ عبد المنعم محمد يوسف، ضمن أوراق اخرى في خزانة والده[١٤]، وقد اطلع عليها من الباحثين كل من؛ الدكتور وحيد محمد على عميد المكتبات بجامعة وادي النيل بمعاونة الأستاذ وهبي عبد الفتاح، من خلال إحياء لمشروع علمي يهدف للمحافظة على التراث الخطي بالولاية.

نشر وفهرسة الوثائق:

الهدف من هذا الإجراء أن الوثائق غالبا تكون مكتوبة بصورة لا تمكن القارئ العادى من فك طلاسمها، إذ إنها مكتوبة في عصر غير العصر الذي يعيش فيه؛ سواء كان ذلك من جانب الكلمات(اللغة) والمعاني أو من جانب الخطوط وطريقة الكتابة أو بفعل التقادم الزمنى، لذلك سنحاول بسط الخطابات للقراءة والتعليق ما أمكن ذلك مسترشدين بالمنهج الوثائقي والملاحظة. حيث قسمت القطعة إلى سطور يفصل بينها بعلامة(/) لميز القارئ بين بداية كل سطر في الوثيقة والذي يليه.أما فهرسة الوثيقة، بمعنى تسجيل بيانات الوصف المُعرّفة بالوثيقة: الشكل، المقاس، والمصدر والمكان والزمان والأرقام ونوع الخط، ونوع التصرف وما إلى ذلك فاكتفينا بالوصف العام لأن الوثائق موضوعها واحد وناسخها واحد، وهى صورة منسوخة من الأصل المفقود كما بينت ذلك القطعة رقم(١) التي وسمت ب(العنوان)

[14] مقابلة هاتفية مع الأستاذ عبد المنعم محمد يوسف الجمعة ١٢رمضان ١٤٣٧هـ٢٠١٦/٦/١٧م الساعة العاشرة مساء

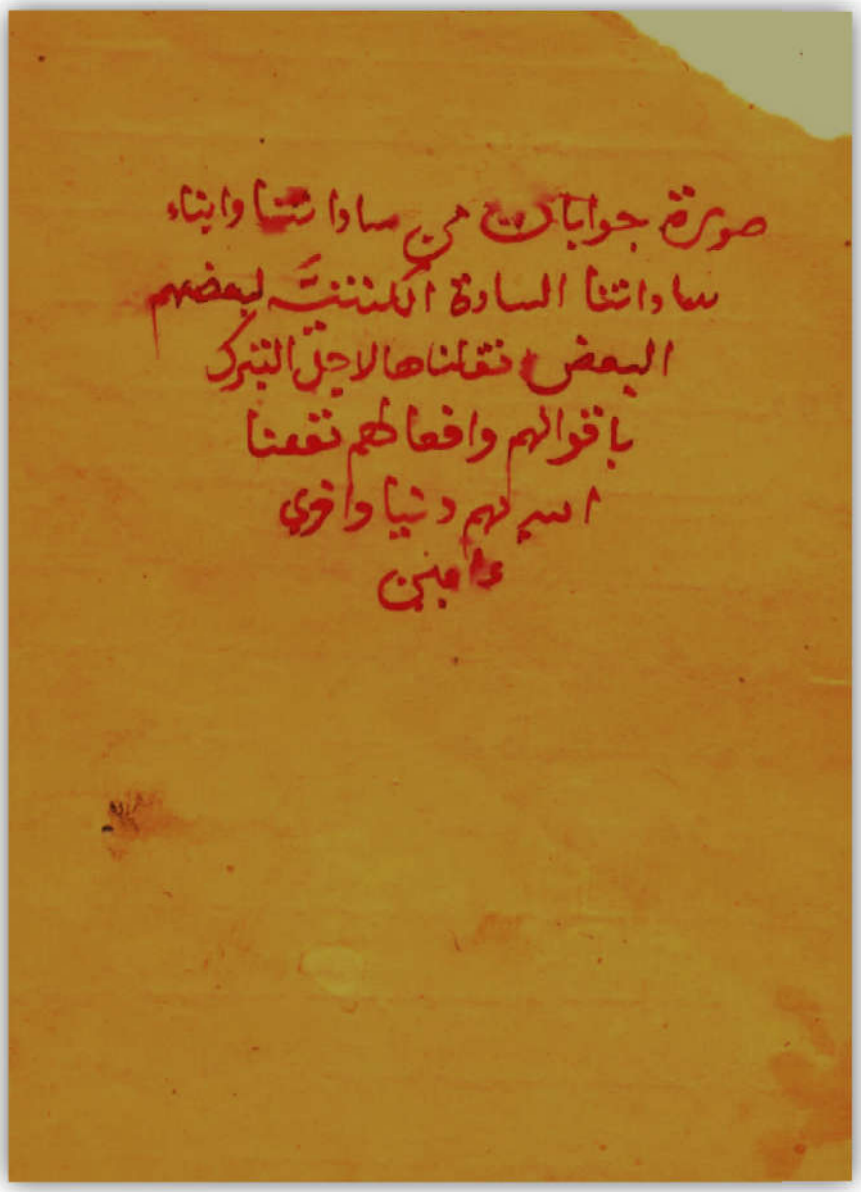

قطعة رقم (١) نسخ خطابات السادة الكنتية[١٥]

صورة١٦ جوابات من ساداتنا وأبناء/ ساداتنا السادة الكنتية بعضهم/ البعض نقلناها لأجل التبرك/ بأقوالهم وأفعالهم نفعنا/ الله بهم دنيا وأخرى/ آمين.

١٥ جاءت القطعة الاولى بمثابة صفحة العنوان موضحة جقيقة العمل نسخة (صورة) من الخطابات الاصل يقصد نسخة[16]

قطعة رقم (٢) خطاب من الشيخ أحمد(البكاي) إلى والده الشيخ محمد الخليفة

بسم الله الرحمن الرحيم/ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله[١٧] وصحبه وسلم جواب من/ سيدي الشيخ البكاى[١٨]الى والده الشيخ محمد الخليفة في طلب فتح العلوم عليه هو ومن معه من إخوانه الذين يقرأون[١٩](؟)/ عند سيدىّ وشيخه سيدىَّ كذلك وكان قرأ على شيخه الشيخ سيدي نصف الألفية في علم النحو/ فقال له اكتب إلي الوالد لعله يفتح علينا وعليك فكتب فقال/

يا سيدي نصف (الخلاصة)[٢٠](لابن مالكٍ) الإمام محمدٍ أكملتـه/

وعلمتوا ما العـاد إلا أننـي لأتـــــم فائد عـادة حولته/

---

١٧. يكتب (آلة) بهمزة ثم الف (ءاله) هكذا

١٨. يظهر من هذه العباره انها ليست من اصل الخطاب كما ان مكان كتابتها ليس مدينة بربر لان الاستاذ الذى درس عليه وجرت

بينها هذه الملح والطرائف كان فى بلاد شنقيط وهو الشيخ سيديا

١٩. كتبت خطأ لاندرى من الكاتب الاصلى ام من الناسخ

٢٠الألفية في النحو للعلامة جمال الدين أبي عبدالله الطائي الجياني المعروف بابن مالك النحوي المتوفى ٦٧٢هـ وهي مقدمة مشهورة، اشتهرت بالألفية،لأنها ألف بيت في الرجز أولها: قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك نشرها كثيرون وترجمها المستشرق "بنتو"إلى الفرنسية،وطبعت مع الأصل العربي في الأستانة ١٨٨٧م، وقد شرحها الكثير من النحاة.

والفضل والإحسان منكم والجداأملته ورعيته وســـــــألته/

[٢١]ولمقربى ولدولتي ولي أنا بل كلنا فالفضل ما استللته[٢٢]/

ويكون ذلك فى كتاب منكم إن الذى أملته قد نلتـــــــه/

ولقد وعدت بمثل ذا ياسيدي وعد الخير عرضته وأطلته/

وإذا وعدت عليكم برغيبة أي أمر لي فكأننى قد نلته/

آهـ/ رد الجواب من الشيخ سيدي محمد الخليفة فى الوزن والقافية/ نفعنا الله بهم جميعا[٢٣]/

---

٢١ هنا بيت محذوف ورد فى المطبوع كذا:

ولقد وعدت بمثل ذا يا سيدي وعدا لخير قد عرضته وأطلته

[٢٢] من هنا وما يلية (٤ ابيات) ليست فى المطبوع

[٢٣] هذه العبارة من الناسخ

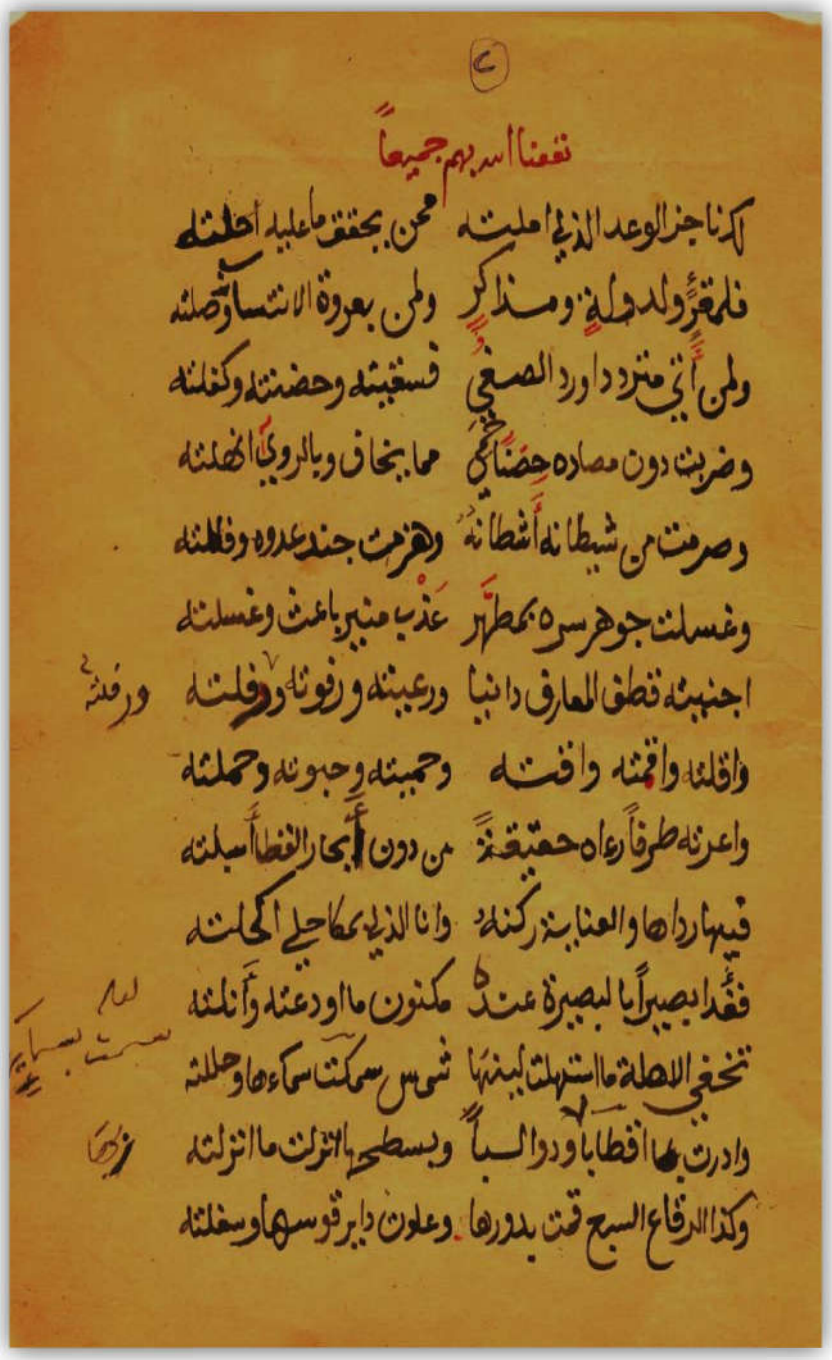

قطعة رقم (٣) رد خطاب الشيخ سيدي (محمد الخليفة) على ابنه الشيخ (البكاي) واستاذه سيديا

لك ناجز الوعد الذي أملته ممن يحقق ما عليه أحلته/

ولمقرئ ولدولة ومذاكر ولمن بعروة الانتساب وصلته/

ولمن أتى متوردا ورد الصفا فسقيته وحضنته وكفلتـــه/

وضربت دون مصاده حصناحمى مما يخاف وبالروا أنهلته/

وصرمت من شيطانه أشطانه وهزمت جند عدوه وفللته/

وغسلت جوهر سره بمطهر عذب منير باعث وغسلته/

أجنيته قطف المعارف دانيا ورعيته ورفوته ورفلتـــــه[٢٤]/

وأقلته وأقمته وأقـتـــه وحميته وحبوته وحملتـــــه/

وأعرته طرفـــا أراه حقيقة من دون لائحها الغطاء سبلته/

فيها رآها والعناية ركـنه وأنا الذي بمكاحلي أكحلته/

فغدا بصيرا بالبصيرة عنده مكنوز مـــــا أودعته وأنـلته/

تخفي الأهلة ما استهلت بينهاشمس سمكت سماءها وحللته/

وأدرت أقطـابا بها ودوالباوبسطحها أنزلت مـا نـزلته/

وكذا الرقاع السبع قمت بدورهافعلوت دائر قوسها وسفلته/

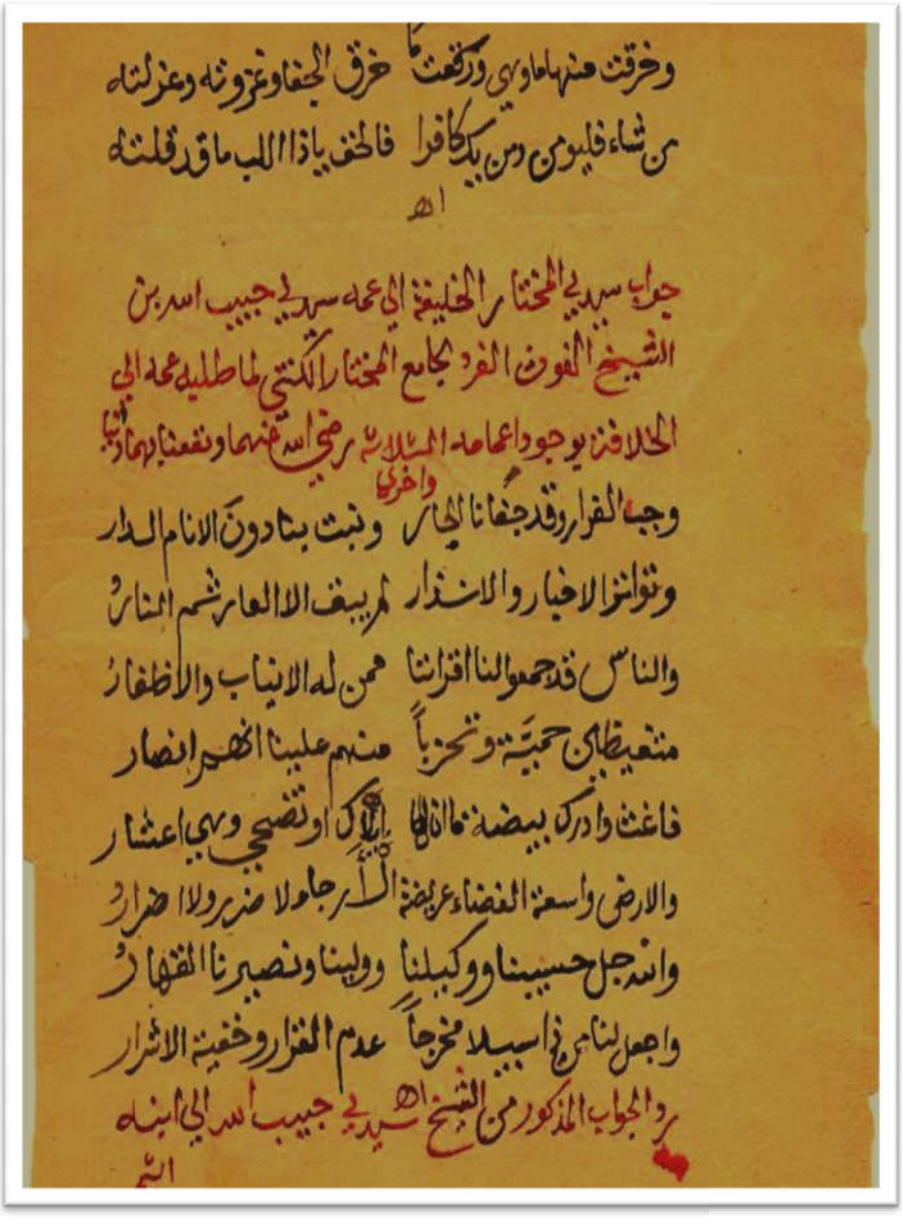

وخرقت منها ما وعى وركبت ما خرق الجفاوغروته وعزلته
من شاء فليؤمن ومن يك كافرا فالخف ياذا اللب ماقد قلته
اهـ

جواب سيدي المختار الخليفة الى عمه سيدي حبيب الله بن
الشيخ الغوث الفرد الجامع المختار الكنتي لما طلبه عمه الى
الخلافة ويوجوداعمامه السلالة رضي الله عنهما ونفعنا بهما آمين
وأخرى
وجب الفرار وقد جفانا الجار ونبت بنا دون الانام الدار
وتواترت الاخبار والانذار لم يبق الا العار ثم النار
والناس قد جمعوا لنا اقرانا ممن له الانياب والاظفار
متغيظين حمية وتحزبا منهم علينا انهم انصار
فاغث وادرك بيضة الاسلام قبل الهلاك او تضيع وهي اعشار
والارض واسعة الفضاء عريضة الارجاء لا ضر ولا ضرار
والله جل حسبنا ووكيلنا ووليناونصيرنا القهار
واجعل لنا من ذا سبيلا مخرجا عدم القرار وخفية الاشرار
رد الجواب المذكور من الشيخ اهـ سيدي حبيب الله الى ابنه
الله

[24] كتبها فى الهامش إلحاقا

قطعة رقم (٤) خطاب الشيخ المختار سيدي الخليفة إلى عمه الشيخ حبيب الله بن المختار

وخرقت منها ما وهى ورفعت ما خرق الجفا وغزوته وغزلته/

من شاء فليومن ومن يك كافرا فياذا اللب مـــــــا قد قلته/

اهـ

جواب سيدى المختار الخليفة إلى عمه سيدى حبيب الله ابن الشيخ الغوث الفرد الجامع المختار الكنتى لما طلب عمه للخلافة بوجود أعمامه الثلاثة رضى الله عنهما ونفعنا بهما دنيا/ وأخرى/

وجب الفرار وقد جفانا الجار ونبت بنا دون الأنام الدار/

وتواتر الأخبار والانزار لم يبق إلا العار ثم النار/

والناس قد جمعوا لنا أقراننا ممن له الأنياب والأظفار/

متغيظين حمية وتحزبا منهم علينا أنهم أنصار/

فأغث وأدرك بيضة ما أن لها إيلاك أو تضحى وهى عشار/

والارض واسعة الفضاء عريضة الأرجاء لا ضرر ولا أضرار/

والله جل حسيبنا ووكيلنا ووليا ونصيرنا القهار/

وجعل لنا من ذا سبيلا مخرجا عدم القرار وخفية الأشرار/

رد الجواب المذكور من الشيخ سيدى حبيب الله إلى ابنه الشيخ[٢٥]

[25] كتبت كتعقيبة لتظهر فى القطعة التالية

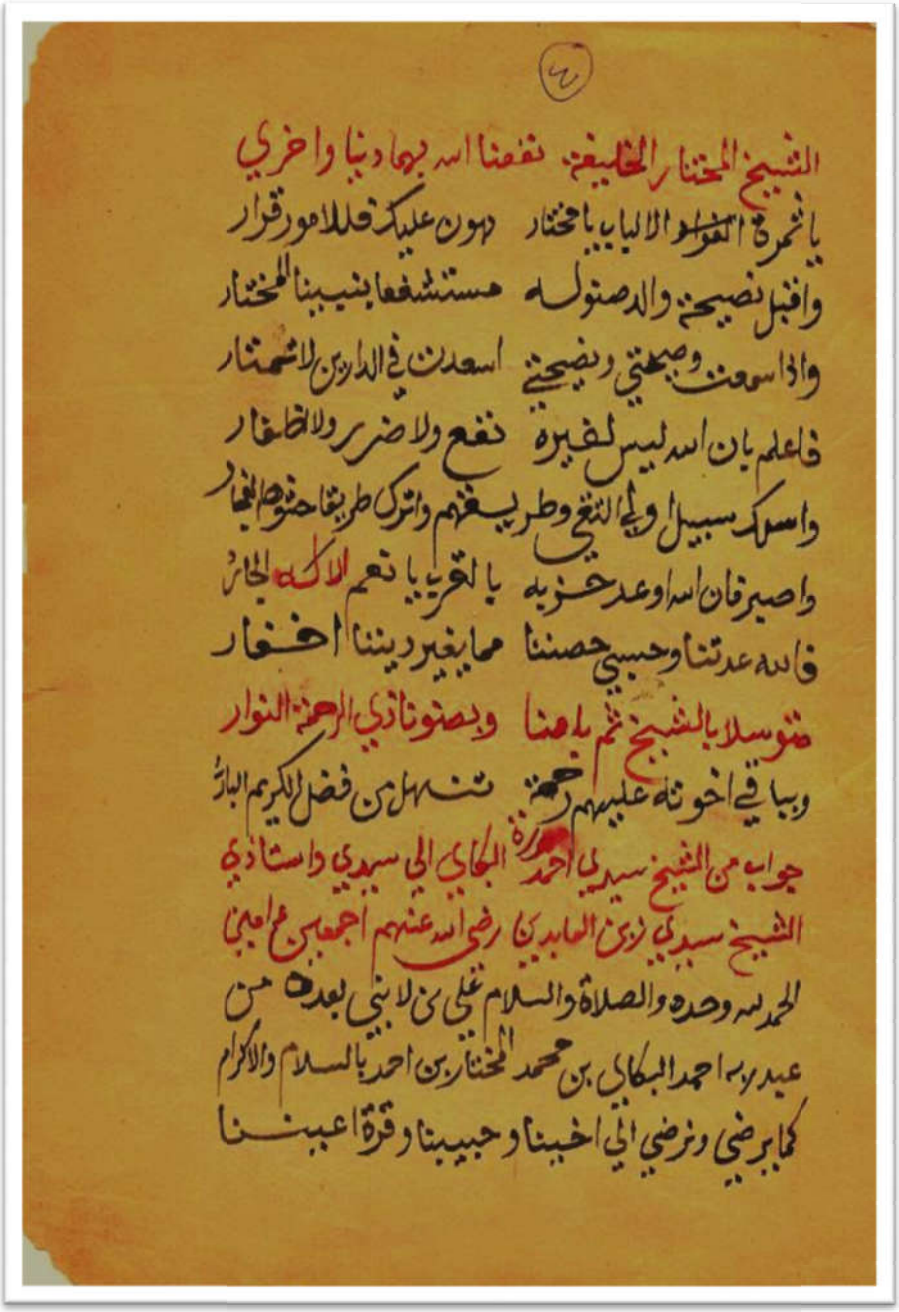
الشيخ المختار الخليفة نفعنا الله بهما دنيا واخري

يا ثمرة الفؤاد الالباب يا مختار هون عليك فللامور قرار

وأقبل نصيحة والد صنوله مستشفعا بنبينا المختار

واذا سمعت وصيتي ونصيحتي اسعدت في الدارين لا تمتار

فاعلم بان الله ليس لغيره نفع ولا ضرر ولا اظفار

واسلك سبيل اولي التقى وطريقهم واترك طريقا حشوه الفجار

واصبر فان الله اوعد حزبه بالقرب يا نعم الاله الجار

فالله عدتنا وحسبي حصننا مما يغير ديننا اغفار

توسلا بالشيخ ثم بنا معا وبصونا ذي الرحمة الغفار

وبباقي اخوته عليهم رحمة تنهل من فضل الكريم البار

جواب من الشيخ سيدي احمد البكاي الجاي الى سيدي واستاذي

الشيخ سيدي زين العابدين رضي الله عنهم اجمعين امين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده من

عبده احمد البكاي بن محمد المختار بن احمد بالسلام والاكرام

كما يرضي ويرضي الي اخينا وحبيبنا وقرة اعيننا

قطعة رقم(٥) صورة جواب من الشيخ حبيب الله الى ابن اخيه الشيخ المختار الخليفة

الشيخ المختار الخليفة نفعنا الله بهما دنيا واخري

ياثمرة [٢٦] الألباب يا مختار هون عليك فللأمور قرار/

وأقبل نصيحة والد صنوله مستشفعا نبينا المختار/

وإذا سمعت وصيتى ونصيحتى اسعدت فى الدارين لا تمتار/

فاعلم بأن الله ليس لغيره نفع ولا ضرر ولا أظفار/

واسلك سبيل أولى التقى وطريقهم واترك طريقا حشوه الفجار/

واصبر فإن الله أوعد حزبه بالقرب يا نعم الإله الجار/

---

[26] كتبها اولا الفؤاد على ما جرت به العادة وكما ورد فى الحديث (قبضم ثمرت فؤاده) ورد فى صحيح الترمزى ومسند الامام احمد.

فالله عدتنا وحسبي حصننا ممـــا يغير ديننا إخفار/

متوسلا الشيخ ثم بامنا وبضونا ذى الرحمة النوار/

وبباقى إخوته عليهم رحمة تنهل من فضل الكريم البارُّ/

صورة / جواب من الشيخ سيدي أحمد البكاى إلى سيدي وأستاذي الشيخ زين العابدين

رضي الله عنهم أجمعين آمين/ الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده من/ عبد ربه أحمد البكاى بن محمد المختار بن أحمد بالسلام والإكرام كما يرضى ونرضى إلى اخينا وحبيبنا وقرة أعيننا

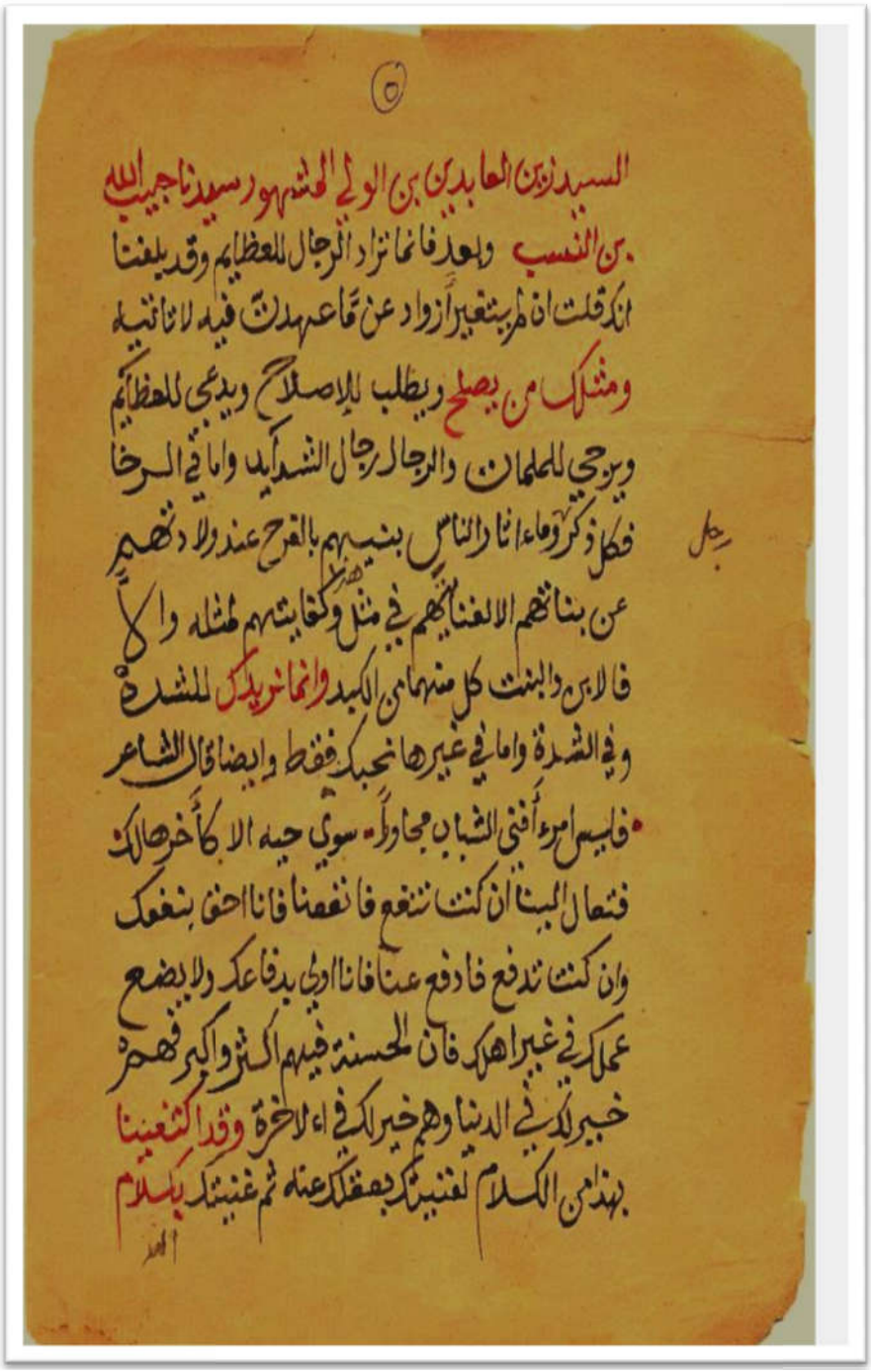

السيد زين العابدين بن الولي المشهور سيدنا حبيب الله
بن النسب وبعد فانما تزداد الرجال للعظايم وقد بلغنا
انك قلت ان امرك يتغير ازواد عن ما عهدت فيه لاثانية
ومثلك من يصلح ويطلب للاصلاح ويدعي للعظايم
ويرجى للعظمان والرجال رجال الشدايد واما في الرخا
فكل ذكر وعاء انا والناس بنيهم بالفرح عند ولادتهم
عن بناتهم الا لغنا يتهم في مثل وكفايتهم لمثله والا
فالابن والبنت كل منهما من الكبد وانما نريدك للشدة
وفي الشدة واما في غيرها نحبك فقط وايضا قال الشاعر
• فليس امرؤ أفنى الشباب مجاورا سوى حيه الا كأخر هالك
فقال البنا ان كنت تنفع فانفعنا فانا احق بنفعك
وان كنت تدفع فادفع عنا فانا اولى بدفاعك ولا يضع
عملك في غيرا هلك فان الحسنة فيهم اكثر واكبر فهم
خير لك في الدنيا وهم خير لك في الاخرة وقد اكتفينا
بهذا من الكلام لفتنتك بعقلك عنه ثم غنيتك بالسلام

قطعة رقم(٦) صور جواب من الشيخ أحمد البكاي إلى الشيخ زين العابدين

السيد زين العابدين بن الولي المشهور سيدنا حبيب الله/ بن النسب وبعد فإنما تراد الرجال للعظايم وقد بلغنا/ أنك قلت إن لم يتغير ازواد عن مّا عهدت فيه لا تأتيه/ ومثلك من يصلح ويطلب للإصلاح ويدعى للعظايم ويرجى للملمات والرجال رجال الشدايد وأما باقي الرخا/ فكل ذكر رجل[٢٧] واما أثار الناس بنيهم بالفرح عند ولادتهم عن بناتهم إلا لعنايتهم فى مثل هذا[٢٨] وكفايتهم لمثله وإلا فابن الابن والبنت كل منهما من الكبد وإنما نريدك للشدة/ وفى الشدة وأما فى غيرها نحبك فقط وأيضا قال الشاعر/

فليس امرا أفنى الشباب مجاورا سوي حيه إلا كآخر هالك

فتعال إلينا ان كنت تنفع فانفعنا فإنا أحق بنفعك/ وإن كنت تدفع فادفع عنا فإنا أولي بدفعك ولا يضيع عملك فى غير أهلك فإن الحسنة فيهم أكثر وأكبر فهم/ خير لك في الآخرة وقد اكتفينا هذا من الكلام لغنيتك بعقلك عنه ثم غنيتك بكلام/ الله[٢٩]

---

[٢٧] سقطت فأتى بها فى الهامش الايمن

[٢٨] سقطت فأتى بها بقلم مختلف اعلى السطر عند التصحيح

[٢٩] جاء لفظ اللجلالة كتعقيبة لما بعدها ليبدأ بها السطر الاول فى القطعة التالية

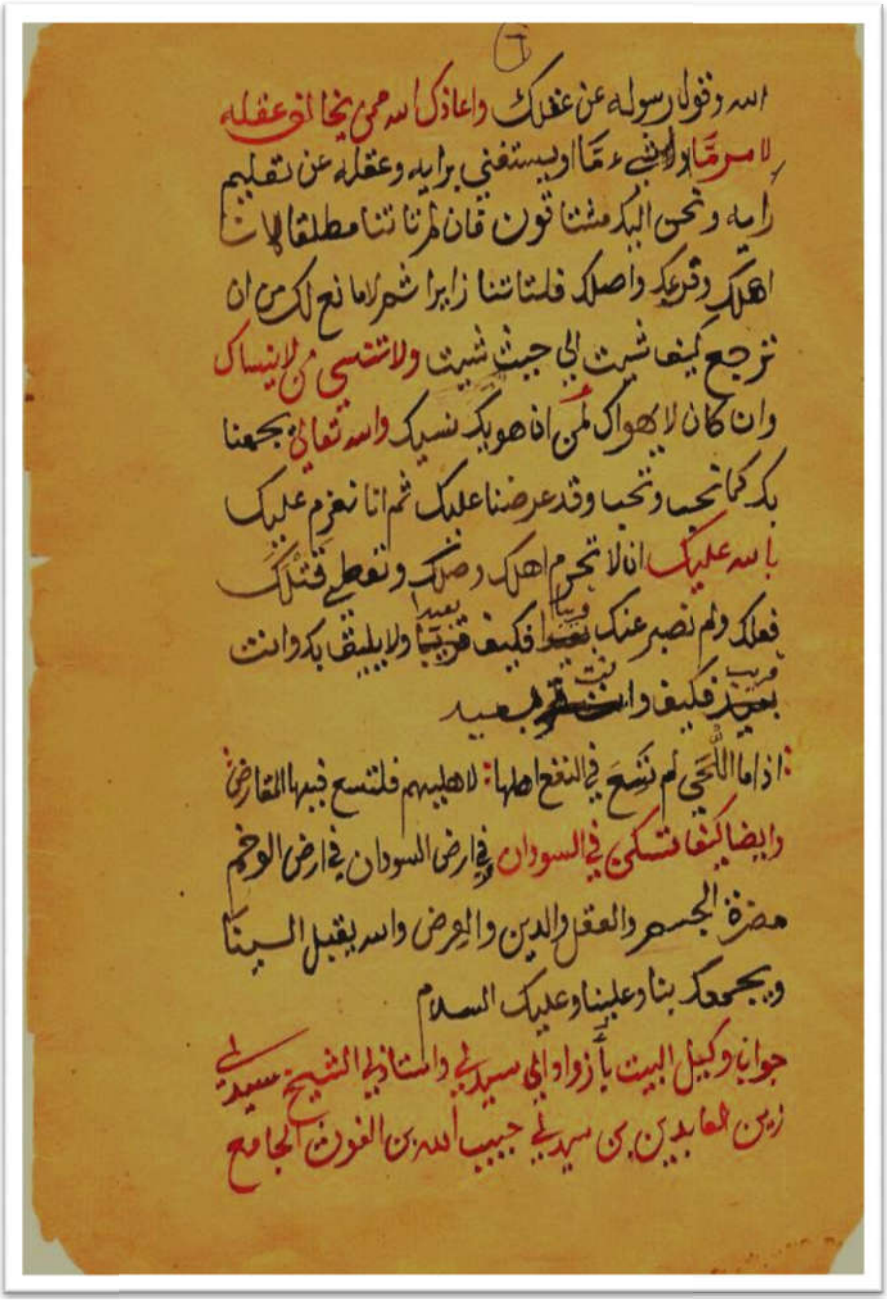

قطعة رقم(٧) صور جواب من الشيخ أحمد البكاي إلى الشيخ زين العابدين

الله وقول رسوله عن عقلك واعازك الله ممن يخالف عقله/ لأمر ما أو شيء ما أو يستغني برأيه وعقله عن تعليم/رأيه ونحن إليك مشتاقون فإن لم تاتنا مطلقا لأنا/ اهلك وفرعك وأصلك فلتأتنا زايرا م لا مانع لك من أن/ ترجع كيف شئت إلى حيث شئت ولا تنس من لا ينساك/ وإن كان لا يهواك لمن إن هويك نسيك[٣٠] والله يجمعنا/ بك كما نحب وتحب وقد عرضنا عليك ثم إنا نعزم عليك/ بالله عليك[٣١] أن لا تحرم أهلك وصلك وتعطي قتلك/ فعلك ولم نصبر عنك قريبا[٣٢]فكيف بعيدا ولا يليق بك وأنت/ قريب فكيف

[٣٠] لم نتبين المقصود بهذه الالفاظ المتكرره

[٣١] كل اساليب التوسل والاستغاثة

[٣٢] كتبها خطاء فستدرها اعلى السطر عند التصحيح لان قلمها مختلف

وأنت بعيد[٣٣]

إذا اللحي لم تسع في النفع أهلها لأهليهم فلتسع فيها المقارض[٣٤]

وأيضا كيف تسكن فى السودان، وفى أرض السودان، فى ارض الوخم/ مضرة للجسم والعقل والدين والعرض والله يقبل إلينا/ ويجمعك بنا وعلينا وعليك السلام/ جواب وكيل البيت بأزواد إلى سيدي واستاذى الشيخ سيدى/ زين العابدين بن سيدي حبيب الله بن الغوث الجامع

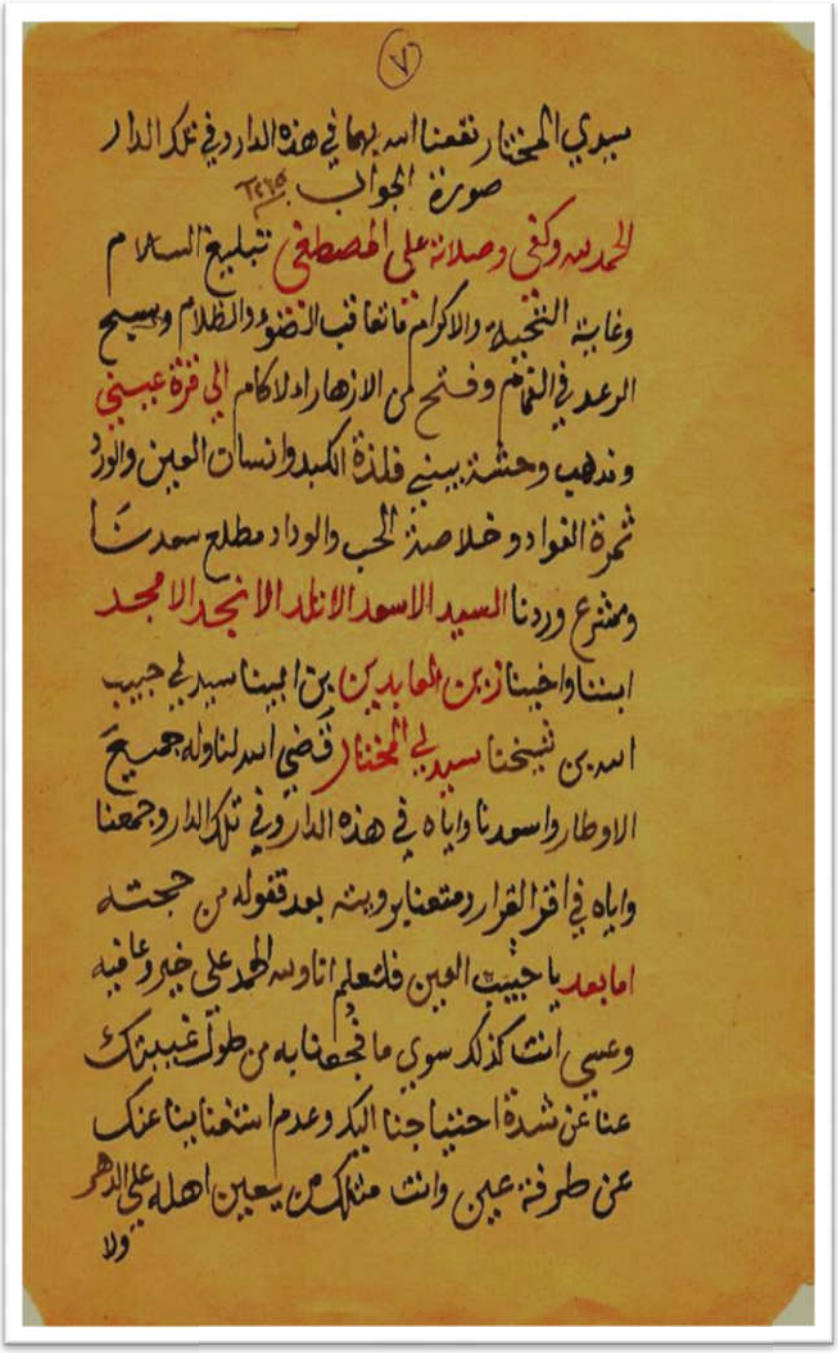
(٧)
سيدي المختار نفعنا الله بهما في هذه الدار وفي تلك الدار
صورة الجواب
الحمد لله وكفى وصلاة على المصطفى تبليغ السلام
وغاية التحية والاكرام فاثغاب الغضوا والظلام وسبح
الرعد في الغمام وفتح لمن الازهار اداله الاكمام الى قرة عيني
وذهب وحشة بيني فلذة الكبد وانسان العين والورد
ثمرة الفواد وخلاصة الحب والوداد مطلع سعدنا
ومشرع وردنا السيد الاسعد الانجد الامجد
ابننا واخينا زين العابدين بن ابينا سيدي حبيب
الله بن شيخنا سيدي المختار قضى الله لنا وله جميع
الاوطار واسعدنا واياه في هذه الدار وفي تلك الدار وجمعنا
واياه في اقر القرار ومتعنا برويته بعد تقوله من حجته
اما بعد يا حبيب العين فلتعلم اناوالله الحمد على خير وعافية
وعسى انت كذلك سوي ما فجعنا به من طول غيبتك
عنا عن شدة احتياجنا اليك وعدم استغنائنا عنك
عن طرفة عين وانت ملكت من يعين اهله على الدهر
ولا

[٣٣] وهذا الاضراب من شدة الشوق والوجد حتى ان هذا الناسخ المتأخر ايضا اطرب في كتابتها

[٣٤] هذا البيت فى ديوان الشاعر المغربى ابن رازكه ص٣٣

قطعة رقم(٨) صور جواب من الشيخ أحمد البكاي إلى الشيخ زين العابدين

يدى المختار نفعنا الله بهما في هذه الدار وفي تلك الدار/ صورة الجواب سنة ١٢٦٥/ الحمد لله وكفى وصلاته على المصطفي تبليغ السلام/ وغاية التحية والإكرام ما تعاقب الضوء والظلام وبح/ الرعد فى الغمام وفتح من الأزهار الأكمام إلى قرة عيني / ومذهب وحشة بيتي فلذة الكبد وإنسان العين والورد/ ثمرة الفواد وخلاصة الحب والوداد مطلع سعدنا/ ومشرع وردنا اليد الأسعد الأتلد الأنجد الأمجد/ ابننا وأخينا زين العابدين ابن أبينا يدي حبيب/ الله ببن شيخنا يدي المختار قضي الله لنا وله جميع/ الأوطار واعدنا وأياه فى هذه الدار وفى تلك الدار وجمعنا/وإياه في أقر القرار ومتعنا برويته بعد قفوله من حجته/ أما بعد يا حبيب العين فلتعلم أنا ولله الحمد على خير وعافيه/ وعسى أنت كذلك سوي ما فجعنا به من طول غيبتك/عنا عن شدة احتياجنا إليك وعدم استغنائنا عنك/عن طرفة عين وأنت مثلك من يعين أهله على الدهر

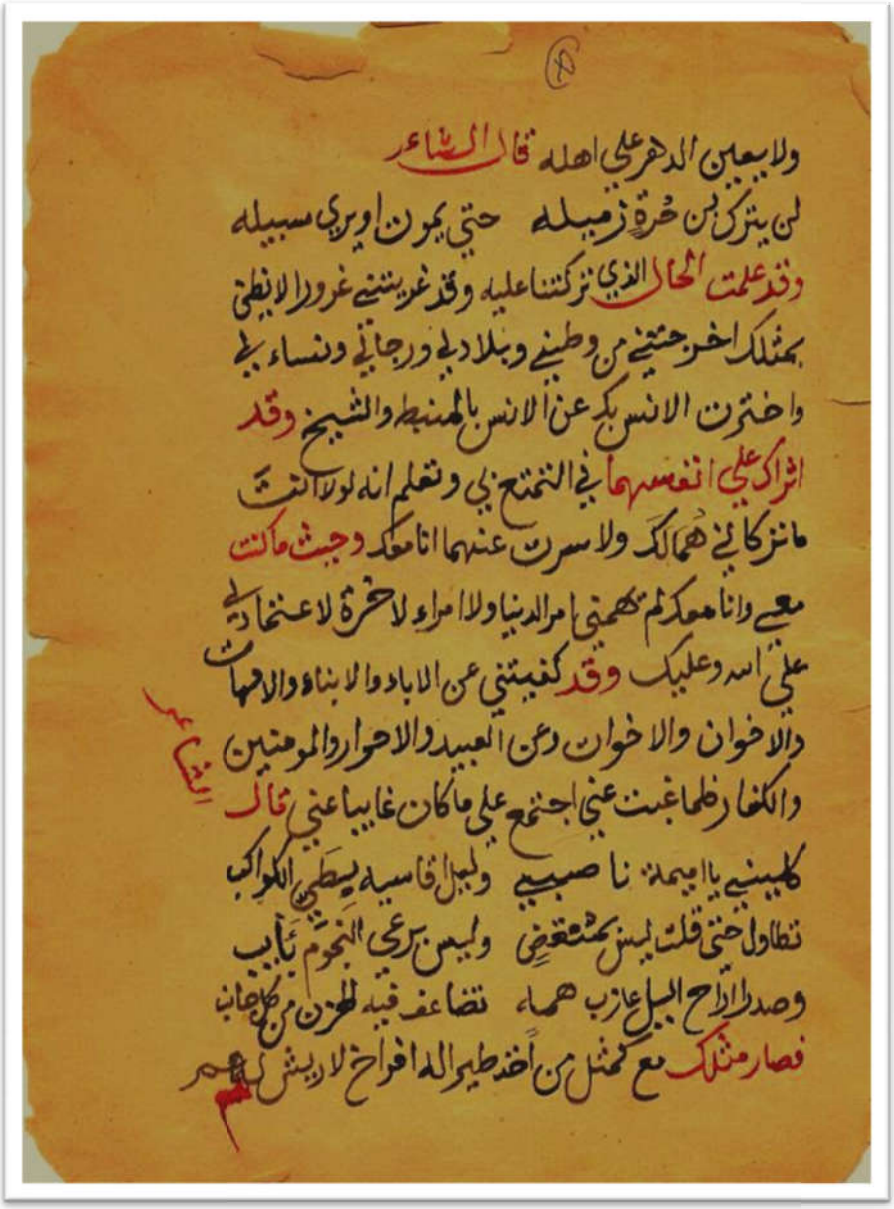

ولا يعين الدهر علي اهله قال الشاعر

لن يترك بن حرة زميله حتي يمون اويري سبيله

وقد علمت الحال الذي تركتنا عليه وقد غريتني غرورا لا يخفى بمثلك اخر جتني من وطني وبلادي ورجالي ونساء بي واخترن الانس بك عن الانس بالمنبه والشيخ وقد اثراك علي انفسهما في التمتع بي وتعلم انه لولا انت ما تركاني في هلاك ولا سرت عنهما انا معك وجئت ماكنت معي وانا معك لم تهمني امر الدنيا ولا امراءه لاخرة لاعتمادي علي الله وعليك وقد كفيتني عن الاباد والابناء والامهات والاخوان والاخوان وعن العبيد والاحرار والمومنين والكفار فلما غبت عني اجتمع علي ما كان غايبا عني قال

كليني يا ايمة ناصبي وليل قاسيه يسطير الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقضي وليس سرعي النجوم بآيب

وصدر الراح البيل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فصار مثلك مع كمثل من اخذ طير اله افراخ لا ريش لهم

قطعة رقم(٩) صور جواب من الشيخ أحمد البكاي إلى الشيخ زين العابدين

ولا يعين الدهر على أهله قال الشاعر:/لن يترك ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله[٣٥]/

وقد علمت الحال الذى تركتنا عليه وقد غريتنى غروراً لا يليق/ بمثلك أخرجتنى من وطني وبلادي ورجالي ونسائي/ واخترت الأنس بك عن الأنس بالمنبط[٣٦] والشيخ وقد/ آثراك على أنفسهما فى التمتع بى وتعلم أنه لولا أنت/ وما تركانى هما لك ولا سرت عنها أنا معك وحيث ما كنت/ معي وأنا معك لم يهمنى أمر الدنيا ولا أمر الآخرة لاعتمادي/ على الله وعليك[٣٧] وقد كفيتنى عن الآباء والأبناء والأمهات/ والإخوان والأخوات وعن العبيد والأحرار والمومنين/ والكفار فلما غبت عنى اجتمع علي ما كان غائباً[٣٨] عني قال/ الشاعر ٣٩

كلينى ياأميمة ناص بى وليل اقاسيه بطىء الكواكب/

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس من يرعى النجوم بآيب/

وصدرا أراح الليل[٤٠] عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب/

فصار مثلك مع[٤١]مثل من أخذ طيرا له أفراخ لا ريش لهم[٤٢]/

---

[٣٥] وقاله أبو البختري وهو ينازل المجذر لا والله إذا لأموتن أنا وهو جميعا لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة. فى (البداية والنهاية) و(السيرة) لابن اسحق

[٣٦] لم ندرك معناها يحتمل ان تكون لفظة محلية مستخدمة للوالدة (الام)

[٣٧] والاصوب ان يأتى ثم؟!

[٣٨] اثبت الياء

[٣٩] اثبتها باللون الاحمر على الهامش.

الابيات من الشعر الجاهلي للنابغة الذبيانى وصدر أي: وكلني أيضا لصدر. وأراح الليل: من الرواح، وعازب: غائب، والمعنى :دعني أيضا وصدري المتضاعف الحزن، الذي أرجع هذا الليل ما كان غائبا من همه. ثم اقتضب الكلام اقتضابا وشرع في مدح عمرو بن الحارث، فقال: علي لعمرو.

[٤٠] اسقط اللام الاخرى لليل(؟)

[٤١] اراد معى فكتبها الكاتب او الناسخ مع واثبتناها كما هى

[٤٢] اخطأ فيها الناسخ فصححها ثم ألحقها بالاحمر الحاقا آخر حتى تقر لهم

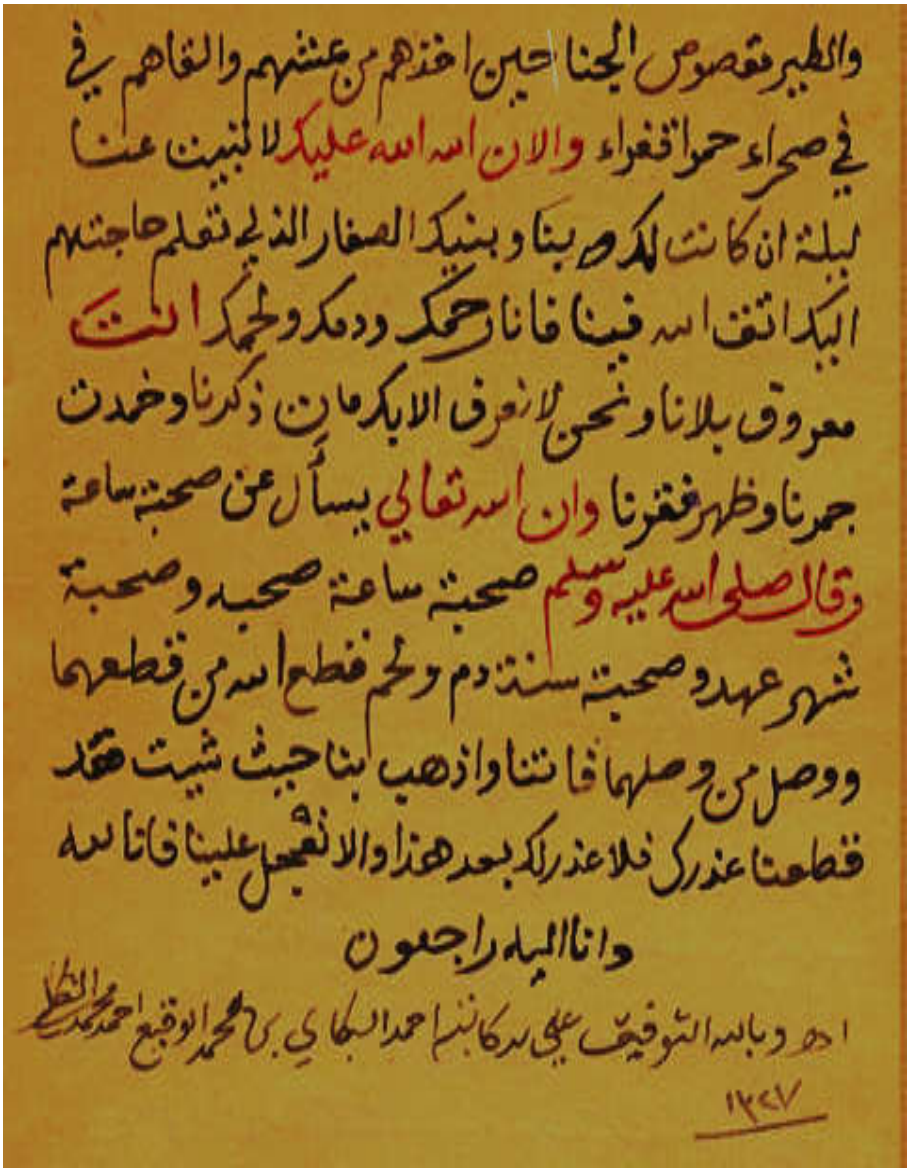
والطير مقصوص الجناحين اخذهم من عشهم والقاهم في
في صحراء حمراء قفراء والان الله عليك لا تبيت عنا
ليلة ان كانت لك بنا وبنيك الصغار الذي تعلم حاجتهم
اليك اتق الله فينا فانا رحمك ودمك ولحمك انت
معروف بلادنا ونحن لا نعرف الا بك مات ذكرنا وخمدت
جمرنا وظهر فقرنا وان الله تعالى يسأل عن صحبة ساعة
وقال صلى الله عليه وسلم صحبة ساعة صحبة وصحبة
شهر عهد وصحبة سنة دم ولحم قطع الله من قطعها
ووصل من وصلها فأتنا واذهب بنا حيث شئت فقد
قطعنا عذرك فلا عذر لك بعد هذا ولا تعجل علينا فانا لله
وانا اليه راجعون
اهـ وبالله التوفيق علي يد كاتبه احمد البكاي بن محمد ابو قبع احمد محمد الطلح
١٢٧٧

قطعة رقم(١٠) صور جواب من الشيخ أحمد البكاي إلى الشيخ زين العابدين

والطير مقصوص الجناحين أخذهم من عشهم وألقاهم فى[٤٣]/ صحراء حمراء قفراء والآن الله عليك لا تبيت عنا/ ليلة إن كانت لك [٤٤]بنا وبنيك الصغار الذي[٤٥] تعلم حاجتهم/ إليك اتق الله فينا فانا رحمك ودمك ولحمك أنت/ معروف بلادنا ونحن لا نعرف إلا بك[٤٦] مات ذكرنا وخمدت جمرنا وظهر فقرنا وإن الله يسأل عن صحبة ساعة/ وقال صلى الله عليه وسلم صحبة ساعة صحبة وصحبة/ شهر عهد وصحبة سنة دم ولحم قطع الله من قطعها ووصل من وصلها[٤٧]، فأتنا واذهب بنا حيث شئت فقد قطعنا عذرك فلا عذر لك بعد هذا[٤٨] ولا تعجل علينا فإنا لله وإنا إليه راجعون/ اهـ وبالله التوفيق[٤٩] علي يد كاتبه

---

[٤٣] كرر فى سهواً فى نهاية السطر وبدأ بها السطر التالى

[٤٤] اخطا الناسخ فى زيادة واو ثم ترها

[٤٥] الذين كتبها الذى ربما على اعتبار ان الاشاره الى الحاجة

[٤٦] هذه العبارات وما بعدها تلل على اهمية الرجل مكانته فى الاسرة والبلد عامة

[٤٧] ام نقف على الحديث بهذا السياق فى مصادر كتب الحديث حتى الموضوعة

[٤٨] يفهم من هنا انهم وافقوا على الشروط و الاسباب التى لاجلها اختار عدم العودة

أحمد البكاي بن محمد الوقيع أحمد محمد الشكلي.

الكلام (التعليق) الدبلوماتى:

وهو هنا التعبير النقدي عن الشكل والمضمون، فالواضح أن هذه الخطابات منسوخة من الأصل بخط اليد، وجاءت كتابتها تباعا على هيئة السجل التقريري، وليس كل خطاب على حده، كما هو متوقع، شملت النصوص شواهد من الكتاب والسنة وآثاراً وأشعاراً، أضاف الناسخ من تلقاء نفسه عدة عبارات وتعبيرات ليست فى النص الأصل فى شكل تعليقات، مثل(نفعنا الله بهم جميعا) (نفعنا الله بهم فى الدارين) (دنيا واخرى)ومن المظاهر الدبلوماتية استخدام التعقيبة في نهاية الصفحة، كذلك من الملاحظات الدبلوماتية استخدام الهوامش للتصحيح، فأحيانا يستخدم الهامش الأيمن وأحيانا الأيسر، وحرد المتن (colophon) أحيانا كما في القطعة رقم(١) ما عدا الأسفل، أما الورق المستخدم فهو ورق الجابر وهو المتوافر في ذلك الزمان والمكان؛ الذي يستخدم فى كتابة المصاحف. أما الخط فهو خط... مقروء وواضح وجميل كتبه بعناية تنم على الاهتمام بهذا الموروسات التى تصل حد القدسية، والمراجعة والتصحيح تدل على تلك العناية التي أرادها الناسخ البكاي(السوداني) والتي صادفت شيئاً فى نفسه، تاريخ النسخ واسم الناسخ ورد في القطعة رقم(١٠) على يد كاتبه أحمد البكاي بن محمد الوقيع أحمد محمد الشكلي، ١٣٢٧هـ،

مناقشة النتائج

أدى ملتقى التواصل الفكري النخبوي في موسم الحج إلى وحدة حقل ثقافي قوامه "رحلات علمية وإجازات واستجازات وتبادل على مستوى الإفتاء والاستفتاء مما يدل على تشابه المعطيات والنوازل و وحدة أدوات التفكير والاجتهاد،والمشاغل الفكرية.

لذلك سعت الدراسة إلى إبراز الرحلة الحجازية كأهم عوامل الوحدة الإسلامية من خلال الدراسة الدلوماتيكية؛ لذلك لجأ الباحث في تحقيق النصوص إلى مضاهاة النصوص بالمصادر الإسلامية والأدبية لاختبار صدقها، وقد اثبت البحث اتفاق الكثير من الأحداث التاريخية من خلال المصادر فعلى سبيل المثال القطعة رقم (٢) أشارت إلى منظومة مشهورة عرفت بالألفية في النحو للعلامة جمال الدين أبي عبد الله الطائي الجياني المعروف بابن مالك النحوي المتوفى ٦٧٢هـ، وهي مقدمة مشهورة،جمع فيها مقاصد العربية وسماها "الخلاصة" في علمي النحو والتصريف،أخذها إبن مالك من الكافية الشافية،صاغها في أرجوزة لطيفة؛ مع الإشارة إلى مذاهب العلماء،وبيان ما يختاره من الآراء أحيانا، إذ كثر إقبال العلماء على هذا الكتاب من بين كتبه،اشتهرت بالألفية،لأنها ألف بيت في الرجز أولها:

قال محمد هو إبن مالك أحمد ربي الله خير مالك

نشره الكثيرون وترجمها المستشرق "بنتو"إلى الفرنسية،وطبعت مع الأصل العربي في الأستانة ١٨٨٧م،وقد شرحها الكثير من النحاة.

---

[٤٩] هذه عبارات الناسخ

كذلك تم الاستشهاد بأبيات من الشعر الجاهلي للنابغة الذبيانى في مدح عمرو بن الحارث،قطعة رقم(٩): كلينى يا أميمة ناصبى وليل اقاسيه بطيىء الكوكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقضي وليس من براعى النجوم بآيب

ولما كان من مطلوبات أداء شعائر الحج الحضور المادى (الفيزيائى) ومبارحة الأوطان والانتقال قصدا إلى بيت الله الحرام والبقاع المقدسة، ترتب على ذلك المرور بالكثير من المشاهد والشواهد التي ينتفع منها الإنسان(ليشهدوا منافع لهم ويذكوا اسم الله) ونلاحظ من خلال مسيرة الرحلة الحجازية كيف قامت المدن ونشأت العلاقات وتكونت الروابط الثقافية، ومن أهمها فى الطريق الإفريقي مدينة بربر، التى تحظى بسبب هذا الموقع التجارى بتباين ديمغرافي إثنى، وتزاوج حضاري بين الريف والحضر مما أدى إلى حضور ثقافي متميز، شكل عنصر جذب للنخب من المشايخ والعلماء الذين رفدوا المنطقة بتراث مادي وخطي مشهود. وقد يغني الشكل الرقم (١) عن كثير العبارات، إذ يظهر المحاور الأساس لهذه الدراسة (السادة الكنتية، مدينة بربر، العلاقات والروابط الثقافية للرحلة الحجازية.) والفضل يرجع للدارسة الوثائقية وعلم الديلوماتيك.

شكل رقم(١) يوضح العلاقات والروابط الثقافية للرحلة الحجازية

نتائج الدراسة

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها:

١/ أكد البحث الوثائقي فاعلية المنهج الديبلوماتى فى نقد وتحقيق النصوص التاريخية.

٢/ كشفت الدراسة أهمية التواصل والاتصال الثقافي بين أقطار ومدن وعلماء الأمة الإسلامية.

٣/ عكست المدونات والآثار الخطية الكنتية العلاقات والروابط الثقافية للرحلة الحجازية.

٤/ بعد التحقق من صحة الأصول باتت النسخ– التى أضفت عليها الصلات الروحية أبعاداً توثيقية مقدرة– محل الأصول المفقودة؛ فغدت شاهدا حيا ودليلاً ملموسا على متانة العلاقات وتماسك البنيات بين بيئات متباينة فى أطراف العالم العربي الإسلامي.

٥/ برزت مدينة بربر كنموذج للمدينة الإسلامية، ومحطة من أهم محطات طريق الحاج الإفريقي؛ فى استقطاب وجذب العابرين من المشائخ والعلماء أمثال الشيخ زين العابدين الكنتي

٦/ توفر السادة الكنتية على قدر وافر من التراث الفكري الرصين فى شتى ضروب المعارف العربية والإسلامية، تجاوز مرحلة الاقليمية إلى العالمية.

٧/ أثْرت الرحلة الحجازية فضاءات الثقافة العربية،بتوفير أهم أدوات التفاعل والاندماج لتعزيز وتعضيد الوحدة الإسلامية.

٨/ أسهمت الرحلة الحجازية في دعم حركة العلوم العربية الإسلامية وانتقال مصنفاتها وإجازات منتجيها ومستهلكيها من العلماء والطلبة.

٩/ أضفت الرحلة الحجازية لونا خاصا كإضافة نوعية ورافدا لأدب الرحلات فى افريقيا.

التوصيات

على ضوء ما ظهر من نتائج توصي الدراسة بالآتي:

١/ توثيق الرحلة الحجازية وتتبع مسارها من العمق الإفريقي إلى سواحل البحر الأحمر باستخدام شتى الوسائط ولاسيما الأفلام التسجيلية.

٢/ بذل المزيد من العناية والاهتمام بالتراث المادي والمخطوط لمدينة بربر باستنفار الجهود الرسمية والشعبية تحت مشروع مدينة بربر عاصمة الثقافة الإسلامية.

٣/ حث مؤسسات رعاية التراث من وزارات التعليم العالي والثقافة، ومنظمات المجتمع المدني الإقليمية والعالمية على التعاون المشترك لإنقاذ ونشر وتحقيق التراث العربي الإسلامي.

٤/ إقامة ندوة إقليمية دورية لبعث وبحث قضايا التراث العربي الإسلامي بالقارة الإفريقية عامة ومنطقة شمال الصحراء الكبرى على نحو أخص.

قائمة المصادر والمراجع

١/(**أبوسليم، ١٩٦٨م**) **محمد** إبراهيم. مخطوط في تأريخ مؤسس الختمية " الإجابة الابانة النورانية فى شأن صاحب الطريقة الختمية مولانا محمد عثمان الختم" مجلة الدراسات السودانية شعبة أبحاث السودان/ كلية الآداب جامعة الخرطوم. العدد الاول ص ص (٣٦-٤٤)

٢/(ـــــــ، ١٩٩١م) **محمد** إبراهيم. أحمد بن ادريس الرباطابي، كتاب الإبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الختمية، أحمد بن ادريس الرباطابي، بيروت.

٣/(**أرسلان، ١٣٥٠هـ**) **شكيب**. الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، وقف على تصحيحها وعلق على بعض حواشيها الشيخ محمد رشيد رضا، مطبعة المنار

٤/(**أبومنقة، ٢٠٠٨م**) **الأمين**. رحلات الحج وآثارها الاجتماعية والاقتصادية في سودان وادي النيل// مجلة الدراسات السودانية مج(١٤)، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم.

٥/(**بوركهارت،٢٠٠٧م**) **جون** لويس. رحلات في بلاد النوبة والسودان. ترجمة فؤاد اندراوس القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

٦/(**ترمنجهام،٢٠٠١م**) **سبنسر**. الإسلام في السودان. تأليف سبنسر ترمنجهام، (ترجمة) فؤاد محمد عكود. القاهرة: المركز القومي للترجمة.

٧/(**الحسن،١٩٩٩م**) **عبد القيوم** عبد الحليم. الخلافة الصكتية في مخطوطات ومطبوعات دراسة ببلوجرافية ببليومترية،(ماجستير) غير منشورة، إشراف د. الرضية آدم محمد، د. زين العابدين عبد الحميد السراج مركز البحوث والدراسات الإفريقية جامعة إفريقيا العالمية

٨/(**حمودة،١٩٩٩م**) **محمود** عباس. المدخل إلى دراسة الوثائق العربية.- القاهرة:دار غريب.

٩/(**السعدى،٢٠٠٠م**)**عبد الرحمن** بن ناصر. تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان، القاهرة: فخر للطباعة.

١٠/(**الصاق، ٢٠٠٧م**) **صلاح** عمر. دراسات سودانية في الآثار والفلكلور. الخرطوم: دار عزة

١١/(**صادقي،٢٠١٢م**)**حسن**. مساهمة كنتة في الحياة الثقافية والسياسية. الرباط: معهد الدراسات الإفريقية جامعة محمد الخامس السويسي (بحوث ودراسات الإصدارة رقم ١٦)

١٢/(**ضناوي،١٩٨٥م**) **محمد** علي. حضارة الإسلام بين التحدي والتعطيل // الإسلام والحضارة.- الرياض : الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

١٣/(**الطيب،١٩٩١م**) **محمد** الطيب المسيد.- الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

١٤/(**العطا،٢٠٠٠م**) **عوض** عبد الهادي. الرحلة الحجازية وأثرها العلمي على إفريقيا// دراسات إفريقية ع (٢٣)، مركز البحوث والدراسات الإفريقية جامعة إفريقيا العالمية.

١٥/(**عوض الكريم،٢٠١٤م**) **معتصم**الحاج. وثائق الغبش بولاية نهر النيل بالسودان: دراسة ديبلوماتيكية رسالة (دكتوراه) غير منشورة، إشراف د. النسر عبد الفضيل سليم، جامعة أمدرمان الإسلامية.

١٦/(**مارثي، ١٩٨٥م**) **بول**.كنتة الشرقيون (ترجمة) محمد محمود ودادي دمشق:دار زيد بن ثابت

١٧/(**محمد الحسن،٢٠٠٤م) محمد** سعيد. اكتشاف أقدم مدينة لقوافل الحج بشمال السودان احتفظت بالمعمار الإسلامي وخلاوي تعليم القرآن للنساء، جريدة الشرق الأوسط.

١٨/ (**المنجد،١٩٧٦م) صلاح**. فهرسة المخطوطات العربية. بيروت: دار الكتاب الجديد، ط٢.

١٩/(الهندى،١٩٧٩م)المتقي. كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال،بيروت:مؤسسة الرسالة

(**HOFHEINZ, KARRAR**)/**199**319,.S.R ,Ali Salih ,ALbrrcht **O'FAHY**

= رسائل أحمد بن إدريس LONDON: HURST& COMPANY,

mawdoo3.com, //http:// معجم المعانى الجامع (2016 ,**mawdoo3**)/20 تاريخ الاطلاع ١٥/٦/ ٢٠١٦م